التصوّر الإسلامي للبيئة
دلالاته وأبعاده

د. محمّد زرمان*

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة باتنة – الجزائر.

ملخص البحث:

إن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قد أوليا اهتماماً كبيراً للبيئة في جميع حالاتها: حية، وجامدة، وأرشدا الإنسان إلى المحافظة عليها، باعتبارها نعماً إلهية، وحذرا من سوء استغلالها، ودعيا إلى الانتفاع بها، والتمتع بطيباتها في حدود الحاجة، وعدا ذلك كله ضرباً من ضروب الطاعات التي يتقرب بها العبد من ربه.

ومن استقراء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتناول موضوع البيئة يمكننا تحديد المعالم الكبرى للتصور الإسلامي للبيئة، والتي تنطبع في وعي المسلم أثناء تفاعله تفاعلاً إيجابياً مع تعاليم دينه، ومنها:أن الله وحده هو خالق البيئة ومنظمها، أن هذه البيئة متوازنة ومقدرة ومنسجمة في كيفها وكمها مع بعضها، وهي في أصل وجودها خير كلها؛ لأنها في ابتداء خلقتها نعمة إلهية تفضَّل بها الله سبحانه على خلقه، والإنسان أهم عناصر البيئة وأبلغها تأثيراً فيها، أن هذه البيئة قد سخرها الله للإنسان، وجعلها منحة مبذولة له، يتصرف فيها، وينتفع بمواردها في إطار القيام بمهمة الخلافة في الأرض، وأنها مقدرة بحيث تظل تتفجر بالخيرات، وتجود بالأقوات، وتكفي كل من عليها من البشر إلى أن يأذن الله بفناء العالم.

والقرآن الكريم قد حذر من الإساءة إلى البيئة والعبث فيها بأي شكل من الأشكال، وعبر عن الاختلال الذي يمكن أن يصيبها أو يدمر بعض عناصرها أو يعطلها عن أداء وظائفها الطبيعية بالفساد. والله تعالى لا يحب المفسدين.

وقد استطاع الفقه الإسلامي أن يتمثل المباديء والتعاليم التي وضعها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأن يستخلص منهما المقاصد العامة التي تكفل للبيئة سلامتها، وتلزم الأمة بصيانتها، وتحرم العبث بمواردها.

وبمقارنة بسيطة لأبجديات التصور الغربي للبيئة ولأزمة التلوث بمعالم التصور الثقافي الإسلامي، تبين لنا أن الإسلام قد ضم بين دفتيه منظومة عقائدية وتشريعية متكاملة، وأنه يحمل في نصوص الوحي – قرآناً وحديثاً – بذور فقه بيئي متميز، بإمكانه تقديم رؤية متوازنة عن مختلف قضايا البيئة، ومعالجة جذرية لمظاهر التلوث، تبدأ من أصلها الذي انطلقت منه، وهو إعداد الإنسان الواعي الملتزم بأحكام الشريعة، المدرك لأبعاد العلاقة التي تربطه بالبيئة ومواردها، المراعي – في نشاطه الحياتي – لحقوقه وحقوق الكائنات التي تشاركه الوجود فوق الأرض.

مقدمة

تواجه البشرية هذه الأيام محنة عسيرة تتمثل في تزايد معدلات تلوث البيئة واتساع وتيرتها وانعكاس ذلك بشكل سلبي ظاهر على الإنسان والحيوان والنبات والمناخ، مما دفع بالمنظمات العالمية والجمعيات العلمية المعنية بشؤون الأحياء والطبيعة إلى تكثيف نشاطاتها؛ للتحذير من هذا الخطر القاتل، وتوعية الإنسان في جميع المجتمعات بأبعاد المشكلة، والضغط على الحكومات والدول لإعطاء هذه القضية حجمها الحقيقي، والتعامل معها بجدية وحذر، ووضع القيود والقوانين التي توقف تفاقم هذه الظاهرة وتخفف من غلوائها.

ونتيجة لخطورة هذه الظاهرة، ونظراً للجهود التي يبذلها دعاة حماية البيئة فقد أصبحت هذا القضية مثار اهتمام العالم، حيث عقدت لأجلها المؤتمرات والندوات والاجتماعات، وصدرت عنها التوصيات، وتعددت الدراسات التي تحاول الإحاطة بالمشكلة من جميع جوانبها، ونشطت وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وكلها تسعى إلى الحد من تلويث البيئة وتدميرها، والعمل على التقليص من الآثار الوخيمة الناتجة عن توسع الإنسان في استهلاك الخامات والموارد الطبيعية المختلفة، وتدخله غير المدروس في تغيير معالم الأرض، وسوء استغلاله للبيئة بما يؤثر على درجة صلاحيتها لمعيشة الإنسان والكائنات الحية الأخرى.

وعلى الرغم من هذه الضجة التي أثيرت حول تلوث البيئة، وتسارع الدول إلى اتخاذ وسائل السلامة، واصطناع سبل الأمان، إلا أن التلوث يزداد يوما بعد يوم: يكتسح البر والبحر، ويفسد الماء والهواء، ويهلك الحرث والنسل.

وأمام هذا الاهتمام العالمي المتزايد، وصرخات التحذير التي يطلقها العلماء كل يوم، ومظاهر التدهور البيئي التي نعايشها، يتساءل المرء عن المكانة التي تحتلها البيئة في التصور الإسلامي، وعن موقف الإسلام من تلوث البيئة، ويستفسر عن الحدود التي وضعها الله سبحانه وتعالى للإنسان ليمارس في إطارها نشاطاته العمرانية دون أن تمتد يده إلى البيئة بالإفساد والتخريب، وعن القواعد التي أوجب عليه الالتزام بها ليحافظ على الانسجام الرائع الذي أوجده

في جميع مناحي الكرة الأرضية، والذي أثبتت الاكتشافات العلمية أنه سر الحياة، وأن أي خلل يصيبه ينعكس سلبا – وبشكل مباشر – على الإنسان، نظرا للترابط الوثيق بينه وبين جميع المخلوقات، سواء أكانت حيوانا أم نباتا أم جمادا.

ومما لاشك فيه: أن مجموعة النصوص القرآنية والحديثية والقواعد الفقهية المبنية على التقدير الكبير للبيئة، وضبط علاقة الإنسان بها من خلال تحديد وظيفته في الحياة، وبيان المكانة المركزية التي يحتلها في الوجود، والتي تمنحه حق تسخير جميع الكائنات، مع تحميله مسؤولية الحفاظ عليها وصيانتها والتحذير من الإسراف والإهدار، أو الفساد والإفساد، أو الإهمال والتخريب تدل كلها على مدى حرص الإسلام على حماية الأرض من كل ما يخل بالتوازن البيئي ويهدد الحياة فوقها.

وتطمح هذه الدراسة إلى الإجابة عن هذه الإشكاليات المختلفة من خلال تقسيم مادة البحث إلى ستة مباحث وعدد من المطالب والفروع، تناولت في المبحث الأول مفهوم البيئة وقسمته إلى أربعة مطالب: عالجت في المطلب الأول مفهوم البيئة في اللغة، وفي المطلب الثاني مفهومها في الاصطلاح، وفي المطلب الثالث عرضت لنبذة عن نشأة علم البيئة وتطوره، وفي المطلب الرابع تحدثت عن مفهوم البيئة في الإسلام وتميزه عن المفهوم المادي المعاصر وارتباطه الوثيق بالجانب العقدي.

أما المبحث الثاني: فقد تحدثت فيه عن مظاهر البيئة في القرآن والسنة، وبينت المكانة الخاصة التي تحتلها البيئة في القرآن الكريم من خلال ما أفرده لها من آيات كريمة أفاضت في وصفها، ولفتت الأنظار إلى بديع خلقها وروعة جمالها، وما تضمنته التوجيهات النبوية الكثيرة من إرشادات تدعو إلى المحافظة على البيئة وتحذر من سوء استغلالها. وفي المبحث الثالث تناولت المعالم الكبرى التي تحدد التصور الإسلامي للبيئة ورتبتها في سبعة مطالب هي: المطلب الأول: أن الله هو خالق البيئة ومنظمها، المطلب الثاني: توازن البيئة، المطلب الثالث: خيرية البيئة، المطلب الرابع: الإنسان أهم عناصر البيئة، المطلب

الخامس: تسخير البيئة للإنسان، المطلب السادس تعمير البيئة والمطلب السابع كفاية البيئة.

وخصصت المبحث الرابع للحديث عن المعاني والإيحاءات التي يتضمنها النهي عن الإفساد في الأرض وقد ضم أربعة مطالب استعرضت فيها جملة من القواعد الشرعية التي تحفظ للإنسان صحته وللبيئة توازنها وتقيها عواقب التلوث الذي يهدد حياة الإنسان. وقد جاء المطلب الأول تحت عنوان أحكام الطهارة، والمطلب الثاني: الاقتصاد في الاستهلاك وتحته أربعة فروع: الاقتصاد في استهلاك المياه، والاقتصاد في استهلاك الغذاء، النهي عن الصيد الجائر، وعدم الإسراف في زراعة ما ليس فيه فائدة. أما المبحث الخامس: فقد عالجت فيه أثر هذه التوجيهات القرآنية والنبوية في الفقه الإسلامي، وكيف استطاع هذا الفقه أن يتمثلها ويصوغها في شكل أصول وقواعد تكفل للبيئة سلامتها، وتلزم الأمة بصيانتها.

و استعرضت في المبحث السادس والأخير التصور الغربي للبيئة، وبينت الأثر السيء الذي تركه هذا التصور على البيئة، وكيف أنه هو المسؤول الأساسي عن أزمة التلوث.و في الخاتمة استعرضت أهم النتائج التي توصلت إليها، وذيلتها ببعض المقترحات التي يمكن أن يسهم بها الفكر والفقه الإسلاميين في حل مشكلة التلوث والوقاية منها، والحفاظ على ما تبقى من مظاهر البيئة سليما نظيفا.

وهذه المعالجة تقودنا – في النهاية – إلى التأكيد على أصالة الموقف الإسلامي، وقدرته على احتواء الأزمات والمشاكل التي تعصف بالإنسان المعاصر الذي تمرد على الفطرة والطبيعة وتعدى حدود الله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾(١)، والذي بات في أمس الحاجة إلى هداية الوحي التي تعيد له انسجامه وتناغمه مع سنن الكون، ونواميس الحياة.

---

(١) الطلاق، ١.

أما المنهج الذي اتبعته في دراسة هذا الموضوع: فهو المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم أساسا على استقراء النصوص المعصومة في الكتاب والسنة، وتحليلها؛ اعتمادا على أمهات كتب التراث وما جد في عصرنا هذا مما يعطي أبعادا جديدة لها، وفي ضوء هذا التحليل يمكننا استخلاص المعالم الكبرى للتصور الإسلامي للبيئة، واستنتاج مدلولاته وأبعاده.

إن قضية البيئة في عصرنا الحاضر تستمد أهميتها من تفاقم ظاهرة التلوث التي لفتت الأنظار لقيمة البيئة ووضعتها على رأس قائمة الاهتمامات العالمية. والتلوث – بمفهومه المعاصر – اعتداء صارخ على حق الحياة الذي يعد حفظه في الإسلام مقصداً هاماً من مقاصد الشريعة، لذلك كانت معالجتنا لموضوع البيئة مرتبطة في كل مراحلها بالتلوث باعتباره سلوكاً إنسانياً عدوانياً لم يسترشد بمعالم المنهج الرباني الذي يضبط حركة الإنسان العمرانية أثناء قيامه بوظيفة الاستخلاف التي أنيطت به، والذي يلزمه مراعاة حقوق المخلوقات الأخرى التي أكد القرآن الكريم أنها تشاركه الحياة على الأرض، كما تشاركه في العبودية لله والتسبيح له.

المبحث الأول
مفهوم البيئة

المطلب الأول
التعريف اللغوي

البيئة: اسم مشتق من الفعل باء، يبوء، بوءاً، أي رجع، وبوأ المنزل[٢] أعده، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾، قال الطبري: «لنبوئنهم من الجنة غرفا، يقول: لننزلنهم من الجنة علالي... وذلك أن قوله لنبوئنهم من بوأته منزلاً أي أنزلته»[٣]، وقال ابن كثير: «أي لنسكننهم منازل عالية في الجنة»[٤]، وجاء في صفوة التفاسير: "أي لننزلنهم أعالي الجنة ولنسكننهم منازل رفيعة فيها"[٥]. وتبوأ المكان: نزله وأقام به. قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾[٦]، جاء في تفسير الطبري: «والذين تبوءوا الدار والإيمان: اتخذوا المدينة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فابتنوها منازل»[٧]، وقال ابن كثير: «أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم»[٨]، وقال الصابوني: "أي الذين اتخذوا المدينة منزلا وسكنا...

---

(٢) العنكبوت، ٥٨.

(٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري). دار الفكر. بيروت. ١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨م. مج ٨. ج ٢١. ص ٨.

(٤) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. مختصر تفسير ابن كثير. اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني. دار القرآن الكريم. بيروت. ط ٧. ١٤٠٢ هـ- ١٩٨١م. مج ٣. ص ٤٢.

(٥) الصابوني، محمد علي. صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم - بيروت. ط ١٩٨١. ٤. مج ٢ ص ٤٦٦.

(٦) الحشر، ٩.

(٧) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن. مج ١٠. ج ٢٨. ص ٢٧.

(٨) مختصر تفسير ابن كثير. مج ٣. ص ٤٧٣.

والتبوء: التمكن والاستقرار"[٩]. والبيئة: المنزل، والمباءة: منزل القوم في كل موضع. وفي كلام العرب يسمى موضع الظبي ومعاطن الإبل والغنم مباءة[١٠].

ومنه نتبين أن البيئة تعني المكان الذي يتخذه الإنسان مستقراً له، ومآلاً يؤوب إليه كلما شعر بالحاجة إلى الراحة والسكون، وقد تدل على معنى أوسع إذا استعملت لجماعة من الناس: فبيئة القوم في كلام العرب هي موضع نزولهم من واد أو سفح جبل[١١]، وبذلك يكتسي اللفظ معنى المحيط الذي يعيش فيه فرد أو جماعة.

ثم استعيرت هذه الكلمة لتدل على المجال الحيوي الطبيعي الذي يعيش فيه الإنسان، ولتكتسي مدلولاً أوسع يتعدى مجال المنزل الصغير الذي يؤوي أفرادا قلائل، والقرية أو المدينة التي تضم بين جوانبها جماعات محدودة من البشر، ويستوعب الأرض كلها، وهي بالفعل بيئة الإنسان ومنزله الحقيقي.

المطلب الثاني
التعريف الاصطلاحي

والبيئة بهذا المدلول الجديد مصطلح معاصر، لم يظهر إلا مع ظهور الفكر البيئي الذي هو وليد العصر الحديث، وقد اتخذ معنى يتناسب مع هذا الفكر، ويشمل جميع ما يحيط بالإنسان من حيوان ونبات وجماد وهواء، وأصبحت البيئة، تعني المجال الحيوي الذي يمارس فيه الإنسان حياته بما فيه من عناصر مادية يستنبط منها متطلبات عيشه، وعوامل يتأثر بها نشاطه الفسيولوجي والاجتماعي. وقد عرف الباحثون المعاصرون البيئة بأنها:

---

(٩) الصابوني، صفوة التفاسير، مج ٣. ص ٣٥١.

(١٠) مجمع اللغة العربية بالقاهرة. المعجم الوسيط. دار الحديث للطبع والنشر – بيروت. ص ٧٥.

(١١) ابن منظور، لسان العرب، مادة بوأ.

«المحيط الذي تعيش فيه الأحياء، مؤلفا من الأرض، وغلافها الجوي، وما عليها، وما في باطنها»[١٢]، وجاء في التعريف الذي تبنته الأمم المتحدة عام ١٩٧٢ م ب(استكهولم) أن البيئة هي: «رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما، وفي مكان ما؛ لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته»[١٣].

ويبدو أن لفظ البيئة يقترب في مدلوله من لفظ (Ecology) اللاتيني الذي يعني الدراسة العلمية لعلاقات الكائنات الحية بوسطها الطبيعي، فهذه الكلمة مشتقة من اللفظ الإغريقي أويكوس(OIKOS) ومعناه: منزل ومن لوغوس LOGOS ومعناه: علم، ولا نستبعد أن يكون العالم أو العلماء الذين وقع اختيارهم على مصطلح "البيئة" للتعبير عن هذا العلم الجديد في اللغة العربية قد استوحوه من المعنى الذي يحمله تركيب اللفظ اللاتيني، فكما أن OIKOS تعني المنزل، وكذلك البيئة في العربية تعني المنزل.

ولعل هذا التوافق بين المعنى اللغوي للكلمة والمعنى الاصطلاحي هو الذي رجح توظيف مصطلح "البيئة" لقربه من المفهوم الحديث[١٤]. كما لا يستبعد أن يكون قد استلهم من بعض الاستعمالات التراثية، حيث تذكر بعض المصادر التاريخية أن ابن عبد ربه قد استعمل في كتابه" الجمانة " لفظ البيئة، ليدل به على الوسط الطبيعي والثقافي الذي يعيش فيه الإنسان[١٥].

وانطلاقا من هذا المعنى اللغوي الذي يحمل شبها قويا بالمعنى الاصطلاحي الحديث وضع لفظ البيئة؛ ليقابل المصطلح الأجنبي

---

(١٢) الكيلاني، د. إبراهيم زيد. "حماية البيئة في الإسلام". مجلة دراسات. مج١٩. ع٤. تشرين الأول ١٩٩٢م. الجامعة الأردنية. عمان. ص ١٨١.

(١٣) صباريني، محمد سعيد، ورشيد الحمد. البيئة ومشكلاتها. مكتبة الفلاح. الكويت. ١٩٨٦م. ص ٢٥.

(١٤) النجار، د عبد المجيد. قضايا البيئة من منظور إسلامي. مركز البحوث والدراسات، الدوحة، قطر، ١٩٩٩، ص ٢١.

(١٥) الفقي، محمد عبد القادر، البيئة مشاكلها وقضاياها. مكتبة ابن سينا. القاهرة ١٩٩٣. ص ٩.

ENVIRONEMENT بالإنجليزية أو ENVIRONNEMENT بالفرنسية، والذي استخدمه العالم الفرنسي سانت هيلر Sainte-HELLERE عام ١٨٣٥ قاصدا به التعبير عن المحيط الذي تعيش فيه جميع الكائنات الحية، مع التأكيد على العلاقة الوطيدة التي تربط هذه الكائنات -بما فيها الإنسان- بهذا المحيط الذي تستمد منه وجودها من خلال علاقة التأثير والتأثر المتبادلة.[١٦]

وتتكون البيئة في المصطلح الحديث من عدة عناصر هي: الغلاف السطحي لليابسة، ويشمل القشرة الأرضية بمكوناتها المختلفة وما يوجد فوقها من وديان وجبال وهضاب، وما تختزنه أعماقها من صخور ومعادن ورواسب، والطبقات السطحية للمحيطات والبحار والتي تمثل عنصر الماء الذي تقوم عليه الحياة في الأرض، ويعد العامل الأكبر في بقائها؛ لماله من أهمية عظيمة في تكيف المناخ والتأثير فيه عبر جميع أشكاله التي تتراوح بين التجمد والسيولة، والتبخر، والغلاف الجوي الذي يشتمل على خليط كبير من الغازات ذات الأهمية البالغة، والوظائف المتعددة التي تشترك جميعا في حماية الحياة على الأرض، وهذا هو الحيز الذي توجد فيه الحياة بأنماطها المتباينة من كائنات دقيقة، ونباتات وحيوانات وإنسان.

وقد أصبح مصطلح البيئة متداولا في جميع الدراسات التي تهتم بهذا المجال منذ أن بدأ الفكر العربي يسهم بنصيب فيه، غير أن مفهومه لم يستقر منذ ظهوره على تعريف واحد جامع مانع، بل ظل يتغير تبعاً للتغيرات التي تطرأ على الدراسات البيئية التي ما فتئت تتسع وتتشعب، خاضعة للحركة المستمرة التي تعرفها الأبحاث العلمية التي تتمخض كل يوم عن اكتشافات جديدة، وتتوصل إلى قوانين علمية وحقائق كونية كانت مجهولة من قبل.

وبذلك تدرج مفهوم البيئة من اعتبارها هي الأرض وما عليها من جماد ونبات إلى إضافة البيئة الحيوانية، ثم العناصر الغازية والضوئية، ثم الأنظمة

---

(١٦) النجار، د. عبد المجيد، مرجع سابق، ص ٢٠.

والتوازنات التي تحكم كل هذه العناصر، وأضيف إليها في الأخير المنشآت العمرانية المختلفة التي شيدها الإنسان من مبان وطرق ومصانع وموانيء وغيرها، ثم اعتبارها بيئة اصطناعية؛ كونها عنصراً خارجياً طارئاً ذا تأثير قوي على البيئة الطبيعية(١٧).

والملاحظ: أن القرآن الكريم قد استعمل مصطلح "الأرض" ليدل به على مجموع المعاني التي يحملها مصطلح البيئة الحديث، حيث وردت هذه الكلمة في مواضع كثيرة جدا بلغت ٤٦١ مرة، ودلت على معان عديدة، كلها مرتبطة بالوجود الإنساني، وتشترك جميعا في كون الأرض هي المكان المناسب الذي أعده الله لاستقرار الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾(١٨) وقال عز وجل: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(١٩)

وبالإمعان في المدلولات العديدة التي تحملها كلمة "الأرض" في القرآن الكريم، يتبين لنا أن المقصود منها لا ينحصر في معنى اليابسة فقط، وإنما يشمل جميع ما يحتويه هذا الكوكب من بحار ويابسة، وهواء وماء، وما يدب فوقها من أحياء، وما يزخر به جوفها من ثروات وكنوز، وهو بذلك يستوعب كل الحقائق العينية والمجهولة فيه.

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار مصطلح "الأرض" مصطلحاً إسلامياً أصيلاً وظَّفه القرآن الكريم للدلالة على المجال الحيوي الذي يعيش فيه الإنسان، والذي استخلفه فيه، ليمارس فيه عملية الإعمار، ونهاه عن إفساده بتغيير خلق الله، والإساءة إلى النظام البديع الذي أوجده الله عليه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾(٢٠).

---

(١٧) المرجع نفسه، ص ٣٢.
(١٨) الأعراف، ١٠.
(١٩) هود، ٦١.
(٢٠) الأعراف، ٥٦.

وهناك علاقة وثيقة بين مصطلحي البيئة والأرض، بما يحمل كل منهما من معانٍ متشابهة. وتتجلى هذه العلاقة من خلال قراءة النص القرآني الذي يقول فيه تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٢١)، قال أبو حيان: «ومعنى بوأكم في الأرض: أنزلكم بها، وأسكنكم إياها، والمباءة: المنزل في الأرض»(٢٢). ففي الآية الكريمة: إشارة واضحة إلى أن الله تعالى قد بوأ قوم صالح في الأرض، أي أنهم اتخذوا من سهولها وجبالها بيئة لهم، يحصلون - من خلال تسخيرها - على حاجتهم من المأكل والملبس والمأوى.

المطلب الثالث

علم البيئة

علم البيئة الذي يدرس هذه العناصر المكونة للمجال الحيوي فوق الأرض، ويركز على بيان نوع العلاقة التي تربطها ببعضها وتسلكها جميعا في نظام واحد علم حديث، بدأ خطواته الأولى في شكل بسيط بعيد عن الاهتمام بالبيئة، وذلك على يد العالم الألماني أرنست هيكل ERNEST HAECKEL المتخصص في علم الأحياء، والذي عكف على دراسة العلاقة بين الحيوانات والمكونات العضوية وغير العضوية في البيئة المحيطة بها، وأطلق على هذا النوع من الدراسة اسم (ECOLOGIE) (Ecology) خلال الثمانينيات من القرن التاسع عشر الميلادي. ثم توالت الدراسات بعده تبحث في هذه العلاقة عند أنواع معينة من الحيوان والنبات، وقادها الشغف العلمي إلى استكشاف بيئات أوسع في البر والبحر والجو، مما أدى إلى الكشف عن قوانين أعقد جعلت العلماء -

---

(٢١) الأعراف، ٧٤.

(٢٢) أبو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف الأندلسي، . تفسير البحر المحيط. دار الفكر. بيروت. ط٢ مصورة. ١٣٩٨ هـ. ج ٤. ص ٣٢٩.

شيئا فشيئا – ينتبهون إلى أن البيئة الأرضية كلها محكومة بنظام واحد شامل يسري عليها مهما تعددت مظاهرها وتنوعت[٢٣].

وأطلقوا على هذا النظام اسم "المنظومة البيئية" ECOSYSTEM وهي تعني أن أية منطقة من اليابسة أو من البحار وما يحيط بها من الغلاف الجوي وما تحويه من مجموعات من أنواع الكائنات الحية، تتفاعل مع بعضها البعض ومع المكونات غير الحية من مواد وعناصر في التربة والماء والهواء في عمليات متتابعة ومنتظمة، تؤدي إلى تدفق الطاقة ودوران العناصر بينها، وتكون محصلتها إنتاجية أولية (نباتية) وإنتاجية ثانوية (حيوانية)[٢٤].

وتتوزع الكائنات الحية في المجتمع البيئي من الناحية الوظيفية إلى مستويات غذائية مختلفة:

١ – الكائنات المنتجة: وهي النباتات الخضراء، وتتميز بكونها كائنات ذاتية التغذية، تبني غذاءها من مواد غير عضوية بسيطة، بتثبيت الطاقة أثناء عملية البناء الضوئي.

٢ – الكائنات المستهلكة: وهي كائنات غير ذاتية التغذية، تعتمد على كائنات أخرى في تغذيتها، وهي إما أن تكون كائنات مستهلكة أولية وهي الحيوانات العاشبة التي تتغذى على النباتات، أو كائنات مستهلكة ثانوية تتغذى على اللحوم، أو كائنات حية تقوم بأكثر من دور واحد في المجتمع البيئي كأن تكون عاشبة ولاحمة في الوقت نفسه مثل الإنسان، أو أن تكون كائنات مستهلكة دقيقة وهي تتمثل في الحيوانات اللافقارية الصغيرة التي تعيش في التربة وتتغذى على النثار من البقايا غير الحية للنباتات والحيوانات، أو كائنات دقيقة كالبكتيريا. والفطر التي تستمد الطاقة اللازمة لها عن طريق تحليل البقايا الحيوانية والنباتية. وعملية التحليل التي تقوم بها هذه الكائنات

---

(٢٣) النجار، د. عبد المجيد، مرجع سابق، ص٣٩.

(٢٤) عياد، د. محمد عبد الجواد. (الاستقرار والتوازن في المنظومة البيئية)، مجلة التربية ع ٩٥. ديسمبر ١٩٩٠ قطر ص ٢٢٠.

الدقيقة مهمة جدا في المنظومة البيئية، حيث يتم بواسطتها تحويل المركبات المعقدة إلى عناصر أولية ومركبات بسيطة تنطلق في الهواء أو التربة؛ لتصبح في متناول النباتات(٢٥)، ومن ثم تبدأ دورة جديدة للحياة وهكذا.

وقد ركزت الدراسات اللاحقة على مظاهر هذا النظام الفريد وقوانينه، وظل هذا الاتجاه يتدعم ويتبلور حتى بلغ درجة عالية من النضج والتكامل. غير أن استفحال ظاهرة التلوث البيئي، وازدياد الشعور بخطرها مع بداية الثلث الأخير من القرن العشرين هو الذي أعطى دفعا قويا للدراسات البيئية ووجهها وجهة جديدة، لا تقتصر على الدراسة المجردة للنظام البيئي، بل تستصحب دراسة مشكلات التلوث البيئي وبيان مظاهرها وأسبابها، والبحث في سبل علاجها والوقاية منها، وبذلك ظهر علم البيئة علما مستقلا بعد أن نشأ في أحضان علم الأحياء، وقطع أشواطاً هامة فيه، واستفاد أثناء تكونه وتطوره ونضجه من علوم كثيرة مثل علم الحيوان، والنبات، والكيمياء الحيوية، والجغرافيا، والمناخ، والتربة(٢٦).

المطلب الرابع

مفهوم البيئة في الإسلام

أما مفهوم البيئة في الإسلام – باعتباره المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، ويتبادل ضمنه علاقات التأثير والتأثر مع عناصر البيئة المختلفة الحية والجامدة على السواء – فإنه يتجاوز حدود الموارد المادية، ليشمل طبيعة العلاقة التي تربط الإنسان بهذه البيئة، ونوعية هذه العلاقة، باعتبار أن التصور الثقافي الذي ينتج النشاط الفكري وما يترتب عنه من سلوك عملي له أثره القوي والواضح على البيئة، ولا مجال لتجاوزه وإغفال نتائجه.

---

(٢٥) عياد، د. محمد عبد الجواد. (الاستقرار والتوازن في المنظومة البيئية)مجلة التربية، ع ٩٥، ص ٢٢٠.

(٢٦) النجار، د: عبد المجيد، مرجع سابق، ص ٤١.

فإذا كان المفهوم الحديث يعتبر أن البيئة هي الموارد المادية التي تتفاعل فتمد الإنسان بأسباب الحياة، وتوفر له ما يحتاجه من مأكل وملبس ومأوى، فإن الإسلام يعطي الأولوية في قيام الحياة الإنسانية الكاملة لصلاح العقائد، وانتشار الفضائل، والتزام الإنسان بالهدي الرباني، ويولي هذا الأمر أهمية خاصة، بناء على تميز الإنسان عن باقي عناصر الطبيعة، على الرغم من كونه أحد مواردها – من خلال قدراته النفسية والروحية التي تجعله قادراً على التأثير في محيطه تأثيراً قد يكون سلبياً وقد يكون إيجابياً تبعاً لما ينطوي عليه تركيبه الفكري من قيم ومبادىء.

فالبيئة التي هي موطن الحياة الإنسانية، شاملة – بهذا المفهوم – للموارد المادية والمعنوية على السواء؛ لأن الإنسان لا تستقيم حياته بصلاح الموارد البيئية المادية فقط، وإنما ترتبط هذه الاستقامة إلى حد بعيد بمرجعيته الثقافية، ومرتكزاته الفكرية التي يصدر عنها في سلوكه وردود أفعاله.

لذلك عد الله سبحانه وتعالى دين الإسلام نعمة تضاهي في قيمتها جميع النعم المادية التي بسطها لبني آدم، لأنه مصدر الهدى، ودليل العباد إلى ما يصلح أمورهم وأحوالهم. قال تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾(٢٧)، ولولا الأهمية القصوى التي تكتسيها نوعية العلاقة الفكرية بين الإنسان وبين البيئة لما أولاها الوحي هذه المكانة المركزية: «فالناس – في نظر القران الكريم وفي الواقع – يعيشون في بيئات أنفسهم أولا: مبادىء ومثلاً وقيماً، أو يكونون خلواً منها؛ لينعكس أثر ذلك كله على بيئاتهم المادية ومواردها: سعياً ومواقف وأهدافاً»(٢٨).

وحتى نتبين أبعاد هذا المفهوم، يجدر بنا أن نتعرف إلى المكانة التي تحتلها البيئة في القرآن والسنة، ونتلمس مدى اهتمامهما بإقامة جسور التواصل والتوافق بينها وبين الإنسان؛ لضمان حمايتها والمحافظة عليها.

---

(٢٧) المائدة، ٣.

(٢٨) الكيلاني، د. زيد. "حماية البيئة في الإسلام". ص٢٠٢.

المبحث الثاني
مظاهر البيئة في القرآن والسنة

تحتل البيئة في المنظور الإسلامي موقعا متميزاً، اكتسبته انطلاقاً من اهتمام القرآن الكريم والسنة الشريفة بها، واللذان جعلا حمايتها والمحافظة عليها جزءاً لا يتجزأ من واجبات المسلم التي يثاب عليها إن قام بها، ويعاقب على التفريط فيها، إهمالاً منه، أو تقصيراً لما يترتب على نكوصه عن أداء واجبه من خلل وفساد. وقد شمل هذا التوجيه جميع مظاهر البيئة وكافة مجالاتها، بدءاً من إماطة الأذى عن الطريق، وانتهاء بتحريم قتل النفس التي حرم الله.

والمتمعن في مصادر الشريعة وأصولها يدرك أنها قد وضعت الأسس الهامة التي تضبط في إطارها - سلوك المسلم في تعامله مع البيئة، كما حددت الشروط الواجب التقيد بها، لتتم المحافظة على مواردها من الاستنزاف الجائر أو سوء الاستخدام، مراعية في ذلك أهم عامل في هذه القضية وهو تربية الوازع الديني، وتنمية الجانب الأخلاقي، والتركيز عليهما؛ لضمان التزام الإنسان بواجباته الشرعية تجاه عناصر البيئة الطبيعية من أحياء ونباتات ومياه ومعادن وموارد للطاقة وغيرها.

وهذه التوجيهات - في مجملها - ترمي إلى تحقيق مقصد جليل يتمثل في إصلاح الحياة الإنسانية والطبيعية، وتفادي أسباب الفساد والهلاك، ليتمكن الإنسان من القيام بأعباء المهمة الاستخلافية التي أوجده الله من أجلها.

وتظهر المكانة الخاصة التي أولاها القرآن الكريم للبيئة جلية فيما أفرده لها من آيات كريمة، بلغ تعدادها قرابة سبعمائة وخمسين آية[٢٩]، تحدث فيها بإسهاب عن الأرض الذلول التي مهدها الله لبني آدم، وفرشها، وبسطها لهم

---

(٢٩) الزبيري، قاصد ياسر. الطبيعة في القرآن الكريم. دار الرشيد. بغداد. ١٩٨٠. ص ٤٦.

ليسعوا في مناكبها: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾[٣٠] وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾[٣١].

كما تحدث عن الأشجار الخضراء الوارفة الظلال التي تكون جنات معروشات، وحدائق ذات بهجة، ومصدراً غنياً من مصادر الغذاء بما تجود به من الثمرات ذات الأنواع المختلفة، والأشكال المتعددة، والأذواق المتباينة، ثم تتحول بقدرة خالقها إلى مصدر مهم من مصادر الطاقة التي توفر للإنسان وقوداً يسهل له قضاء حاجاته: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣٢]. وقال عز وجل ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[٣٣].

وأفاض في ذكر الماء مصدر الحياة، وصوره في جميع أشكاله: في شكل أمطار تنزل من السماء؛ فتحيي الأرض بعد موتها، وتنبت الزرع، وفي شكل أنهار، تشق الحقول والمزارع، فتروي التربة والبشر والأنعام، وفي شكل مياه جوفية تسير بين طبقات الصخور لمسافات طويلة، ثم تتفجر - بإذن ربها - ينابيع صافية عذبة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾[٣٤].

وذكر البحار وعظمة خلقتها، وسعة مساحتها، وروعة تكوينها، وأرشد إلى ما أودع فيها من أرزاق وفيرة للمنفعة والمتعة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ

---

(٣٠) طه، ٥٣.
(٣١) الذاريات، ٤٨.
(٣٢) الرعد، ٤.
(٣٣) يس، ٨٠.
(٣٤) الزمر، ٢١.

لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٣٥).

وعرض صور الرياح والسحاب والبرق والرعد وما يجري في الغلاف الجوي للأرض من عمليات مناخية تحفظ الحياة وتنميها: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾(٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾(٣٧).

وصور عالم الحيوان، وبين قدرة الله سبحانه وتعالى في اختلاف الخلق ومظاهر الإبداع، وأشار إلى أن هذا العالم العجيب له خصائصه وطبائعه وشعوره مثل عالم الإنسان: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾(٣٨)، وأن قسماً كبيراً منه قد سخره لبني آدم؛ لينتفعوا بلحمه وصوفه وأوباره وألبانه، ويتخذوا منه مركباً ذلولاً يقرب لهم المسافات ويجنبهم مشقة الأسفار: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾(٣٩).

وما إلى ذلك من المشاهد البيئية البديعة التي زخرت بها آيات القرآن، ووردت في سياق يصورها على أنها نعم جليلة، تفضل بها الله سبحانه وتعالى على عباده، ومن بها عليهم؛ ليتمتعوا بطيباتها، ويتقلبوا في خيراتها، ويستشعروا منها عظمته وجبروته.

---

(٣٥) النحل، ١٤.
(٣٦) الروم، ٤٨.
(٣٧) البقرة، ١٦٤.
(٣٨) الأنعام، ٣٨.
(٣٩) النحل، ٥، ٦، ٧، ٨.

ومما يلفت النظر إلى هذه الآيات التي تتضمن حديثاً مستفيضاً عن مظاهر البيئة المختلفة: تنبيه الإنسان إلى استشعار جمالها، والإحساس بما تنطوي عليه أشكالها وألوانها وحركاتها المختلفة من متعة تثير النفس، وتبعث فيها البهجة والراحة، سواء في هيئتها الذاتية، وشكل خلقتها الفردية، أوفي تناغمها مع باقي المكونات التي ترسم مشاهد مثيرة ومناظر بديعة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(٤٠).

ويعلق سيد قطب على هذه الآية قائلا: «..واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار، تهز القلب هزا، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي... إن عنصر الجمال يبدو مقصوداً قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه، ومن كمال هذا الجمال: أن وظائف الأشياء تؤدى عن طريق جمالها. هذه الألوان العجيبة في الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التي تفوح، ووظيفة النحل والفراش بالقياس إلى الزهرة هي القيام بنقل اللقاح؛ لتنشأ الثمار، وهكذا تؤدي الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها»(٤١).

وقد صرح القرآن الكريم أن خلق مظاهر الطبيعة على هذه الصورة الجميلة أمر مقصود، ويبدو ذلك واضحا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾(٤٢)، وقوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾(٤٣) وما إليها من الآيات التي تؤكد أن عناصر البيئة ليست تراكمات مادية جامدة، وإنما هي – بالإضافة إلى المنفعة

---

(٤٠) فاطر، ٢٧، ٢٨.

(٤١) قطب، سيد، في ظلال القرآن – دار الشروق، بيروت، ط٧. ١٩٧٨. مج ٥، ص ٢٩٤٣.

(٤٢) الحجر، ١٦.

(٤٣) النحل، ٦.

المادية التي توفرها للإنسان - مصدر للإشباع الروحي بالتأمل في جمالها وتغذية الروح بمشاهدها.

بل إن الله سبحانه وتعالى ينبه الإنسان إلى أن الكون بجميع مخلوقاته الحية والجامدة - على السواء - تسري فيه روح شفافة تتصل بخالقها من خلال تسبيحه وتمجيده، والإنابة إليه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ﴾[٤٤] فيحس الإنسان وهو يتأملها بما يسري فيها من الحياة، ويدرك أنه ليس وحيداً في هذا الكون الفسيح، فإن جميع ما حوله من بدائع صنع الله تبدو في صور شتى، وأشكال مختلفة، وذات طبائع متباينة تشاركه الصلاة والتسبيح.

ويقول عز وجل في سورة الإسراء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ﴾[٤٥] يقول سيد قطب: «وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحاً حية تسبح الله، فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال. وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر، وكل حبة وكل ورقة، وكل زهرة، وكل ثمرة، وكل نبتة، وكل شجرة، وكل حشرة وكل زاحفة، وكل حيوان، وكل إنسان، وكل دابة على الأرض، وكل سابحة في الماء والهواء..ومعها سكان السماء.كلها تسبح الله، وتتوجه إليه في علاه. وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه، وكلما همت يده أن تلمس شيئاً، وكلما همت رجله أن تطأ شيئا.. سمعه يسبح لله، وينبض بالحياة»[٤٦].

ويكتسي هذا التوجيه الإلهي أهمية خاصة، تتمثل فيما ينطبع في وعي الإنسان من احترام للبيئة وتعظيم لخالقها، وما يترتب عن هذا الشعور الجميل

(٤٤) النور، ٤١.
(٤٥) الإسراء، ٤٤.
(٤٦) قطب، سيد. في ظلال القرآن، مج ٤، ص ٢٢٣٠، ٢٢٣١.

من رفق بعناصرها، واقتصاد في استغلالها، وما يتولد عنه من مشاعر الحب والرأفة والرحمة التي تجعله حريصا على إبقاء جمالها قائماً مستمراً، والاستنفاع منه بالقدر الذي يلبي حاجاته الأساسية دون هدر أو فساد.

كما ضم الحديث النبوي توجيهات كثيرة ترشد الإنسان إلى المحافظة على مظاهر البيئة باعتبارها نعماً إلهية، وتحذر من سوء استغلالها، وإهدارها والإسراف في استعمالها، وتدعو إلى الانتفاع بها والتمتع بطيباتها في حدود الحاجة، سواء أتعلق الأمر بالأشجار، أم الزرع، أو المياه، أو الحيوانات – الأليفة منها والبرية – أو الحشرات على مختلف أنواعها، وتعد ذلك ضربا من ضروب الطاعات التي يتقرب بها العبد من ربه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – متوعدا المفسدين النين يتلهون بقطع الأشجار في غير منفعة أو ضرورة –: «من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار». سئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: هذا الحديث مختصر، يعني من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه في النار»(٤٧). وأوصى خيراً بالحيوانات الأليفة، وأمر أصحابها بالرفق بها: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»(٤٨) ولعن كل من اتخذ حيواناً غرضاً للرماية، أو روضه للمباريات التي يتم فيها التحريش بين حيوانين حتى يقتل أحدهما، أو كواه بالنار؛ ليتم التعرف عليه، قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا»(٤٩).

(٤٧) السجستاني، سليمان بن الأشعث. سنن أبي داود، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الفكر. بيروت. د. ط. د. ت. كتاب الأدب. رقم الحديث ٤٥٦١. ج ٤. ص ٣٦١.

(٤٨) سنن أبي داود. كتاب الجهاد. رقم الحديث ٢٥٤٨. ج٣. ص ٢٣. ومسند أحمد. مسند الشاميين. رقم الحديث ١٦٧٦٩.

(٤٩) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. د. ت. د. ط. كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان. رقم الحديث ٣٦١٧. ج٣. ص١٥٤٩. و سنن الترمذي. كتاب الصيد. رقم ١٣٩٥. وسنن النسائي. كتاب الضحايا. رقم ٤٣٦٧ و٤٣٦٨. وسنن ابن ماجه. كتاب الذبائح. رقم ٣١٧٨. ومسند أحمد. مسند بني هاشم. رقم ١٧٦٦ و٢٣٤٥ و٢٣٥٠ و٢٤٠١.

المبحث الثالث
دلالات التصور الإسلامي للبيئة وأبعاده

وانطلاقا من هذا الاهتمام الكبير بالبيئة في جميع حالاتها حية وجامدة، يكون التصور الإسلامي لها من خلال تحديد القرآن والسنة لمصدرها ومصيرها، وتوضيحهما لحقيقتها وأبعادها، وضبطهما لعلاقة الإنسان بها أثناء مزاولته لنشاطه العمراني.

ومن خلال استقرائنا للآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتناول موضوع البيئة، يمكننا تحديد المعالم الكبرى لهذا التصور الذي يتكون في وعي المسلم أثناء تلقيه لمبادىء دينه، ويتبلور في شكل صورة ثقافية لا تلبث أن تصبح أداة فاعلة في توجيه سلوكه البيئي، نذكر منها:

المطلب الأول
الله وحده هو خالق البيئة ومنظمها

وهذا أول أساس يبنى عليه التصور الإسلامي. فالبيئة بجميع عناصرها من إبداع خالق قدير، سواها وقدرها، وأوجدها في أروع صورة، وأكمل خلق، وهي في جميع أشكالها وأطوارها شاهد حي على عظمة الإله وتفرده بالألوهية، ووحدانيته، بما يتجلى فيها من نظام بديع يستغرق جميع مكوناتها، ابتداء من أدنى مخلوق إلى أكبر كائن فيها، بحيث يشهد انسجام عناصرها وتكاملها على أن من أبدعها واحد لا شريك له: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾(٥٠) ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٥١).

---

(٥٠) الملك، ٣.
(٥١) الأنبياء، ٢٢.

المطلب الثاني

توازن البيئة

إن جميع موجودات البيئة متوازنة مقدرة، خاضعة لقانون دقيق لا تحيد عنه، بحيث تنسجم في كيفها وكمها بعضها مع بعض، ويمثل كل كائن منها حلقة في سلسلة متناغمة، بحيث لا تعثر فيها على خلل أو اضطراب أو تشويش؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[٥٢]

فكل ما خلقه الله تعالى من أصغر جسيم في الذرة إلى أضخم تجمعات المجرات هو قائم على نظام بديع، وله دوره الذي يلعبه في هذا النظام الكوني المتناسق، حيث قدر عز وجل لكل مخلوق غاية لوجوده، ووظيفة مقدرة له، لا يجوز الإخلال بها، وإن كانت هذه الوظائف الحيوية تخفى على الإنسان بسبب جهله، فهو مطالب باحترام هذه المخلوقات جميعا، والتعامل معها وفق الوجه المشروع الذي وجدت لأجله؛ حتى يتيسر له فهمها وتقدير دورها في البيئة.

فالشمس والقمر مسخران بأمر الله تعالى؛ لإرسال الضوء والدفء بمقدار محدد، وكمية مناسبة لا تزيد ولا تنقص ولا تختل، وإلا تعرضت الأرض للفناء، فلو أعطت الشمس نصف كمية الإشعاعات التي تعطيها حاليا لتجمدت الأرض بما عليها من كائنات حية، ولو أن الكمية الحالية زادت بالنصف لاحترقت الأرض، وأمست الموجودات رماداً.[٥٣]

ومثل ذلك النسبة المضبوطة لكمية الأوكسجين في الهواء، والتي تقدر بـ٢١٪، فلو أنها ارتفعت إلى ٥٠٪ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضه للاشتعال مع وجود أقل شرارة، ثم إن هناك توازنا بين هذه الكمية من الأوكسجين، ونسبة ثاني أكسيد الكربون في الهواء، فلو زادت النسبة

---

(٥٢) الحجر، ١٩.

(٥٣) طبارة، عفيف عبد الفتاح. روح الدين الإسلامي. ص، ٥٧.

في مادة على حساب الأخرى لذوى النبات، ومات الحيوان[٥٤]، واختفى الإنسان من الأرض.

وتعاقب الليل والنهار - وبالمدة المطلوبة وحسب فصول السنة - يتيح لأنواع الثمار والنباتات أن تنمو بشكل طبيعي؛ حتى تأخذ حاجتها الكافية من الشمس دون إفراط أو تفريط. ودوران الأرض حول نفسها وحول الشمس بسرعة دقيقة، له أثره القوي في وجود الحياة واستقرارها، فهي تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة، وتدور حول الشمس بسرعة خمسة وستين ألف ميل في الساعة، فلو أن الأرض زادت قليلا من سرعتها المضبوطة لتناثرت المنازل وتفككت الموجودات، ولو أن هذه السرعة نقصت قليلا لهلك من على الأرض من حر وبرد[٥٥].

ولعل أبرز مجال تتبدى فيه ظاهرة التوازن في البيئة هو عناصر البيئة الأرضية نفسها، بما كشف فيها العلم الحديث من مقادير غاية في الدقة تتحكم في حركة الكائنات الحية والجامدة.

المطلب الثالث

خيرية البيئة

تأخذ هذه الفكرة مكانها في وعي الإنسان المسلم من اعتقاده الجازم أن البيئة التي خلقها الله تعالى هي في أصل وجودها خير كلها؛ لأنها في ابتداء خلقتها نعمة إلهية، تفضل بها الله على خلقه

وكونها نعمة يستلزم أن جميع موجوداتها بمختلف أشكالها وأنواعها وهيئاتها قد خلقت لمنفعة الإنسان وليس شيئ منها قط قد وجد من أجل الضرر به أو إلحاق الأذى به، على الرغم مما يبدو في بعض مظاهرها من أوجه

---

(٥٤) المرجع نفسه، ص٥٨.

(٥٥) زكي، أحمد. مع الله في السماء. ص٧٨.

الشر التي لا تلبث التجارب الميدانية والدراسات العلمية أن تكشف عن خيريتها الأصلية.

والقرآن يؤكد أن جميع ما يوجد على الأرض قد خلق لحكمة تتضمن الخير، وليس فيه شائبة من شوائب العبث، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾(٥٦) وضرب مثلا بحشرة صغيرة ضعيفة يحتقرها الإنسان ويتحاشى أذاها؛ ليبين أن كل الموجودات مهما بدت ضئيلة، قليلة النفع أو عديمته، لها مكانها الخاص في سلم المخلوقات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ﴾(٥٧).

وفي هذا السياق نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن سب الريح؛ لأنها مخلوق مسخر لمنفعة الناس، تدفعها الإرادة الإلهية حيث تشاء، وأمر حين التأذي من هبوبها - بالتوجه بالدعاء إلى الله عز وجل ليجعل ذلك خيرا عليهم: «الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها وسلوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرها»(٥٨) كما نهى عن سب الديك، ولعن الأنعام والدواب.

إن هذا التوجيه الرباني القائم على اعتبار جميع الكائنات البيئية ذات قيمة في ذاتها، سيثمر - ولا شك - موقفاً إنسانياً يتحاشى الإضرار بها، أو إبادتها أو تعطيلها عن أداء وظائفها الطبيعية، وإنما يستفيد مما أتيح له الاستفادة منها، ويدفع أذى بعضها في حدود ما يضمن له سلامته أو سلامة محاصيله، ولا يتعرض للمخلوقات التي لا تدخل ضمن نشاطاته الزراعية أو الصناعية

---

(٥٦) ص، ٢٧.

(٥٧) البقرة، ٢٦.

(٥٨) سنن أبي داود. كتاب الأدب. رقم ٤٤٣٣ بإسناد حسن. ج٤. ص٣٢٦. وسنن ابن ماجه. كتاب الأدب. رقم ٣٧١٧. ج٢. ص١٢٢٨.

بالمطاردة الجائرة أو الصيد العابث؛ لتظل دورة الحياة سائرة في حدود التوازن المطلوب.

وهو في الوقت ذاته: محفز للإنسان المسلم لارتياد آفاق البحث والدرس والتنقيب، للوقوف على أوجه النشاط الذي تمارسه مختلف الكائنات الحية - النباتية منها والحيوانية - والدور الذي تقوم به الطبيعة الجامدة؛ لتتبين له خيريتها ومظاهر منفعتها. وقد عالج الجاحظ هذه الفكرة بوحي من ثقافته الإسلامية العميقة حين قال في كتاب الحيوان: «فإياك أن تسيء الظن بشيء من الحيوان لاضطراب الخلق، ولتفاوت التركيب، ولأنه مشنوء في العين أو لأنه قليل النفع والرد، فإن الذي تظن أنه أقلها نفعاً لعله أن يكون أكثرها رداً... واعلم أن مواقع منافعها من جهة الامتحان والبلوى، ومن جهة ما أعد الله عز وجل للصابرين... ولتقف، حتى تتفكر في الباب الذي رميت إليك بحميلته، فإنك ستكثر حمد الله عز وجل على خلق الهمج والحشرات وذوات السموم والأنياب، كما تحمده على خلق الأغذية من الماء والنسيم»(٥٩).

كما تناولها الراغب الأصفهاني، وأكد أن جميع خلق الله خير في ذاته، وبإمكان الإنسان أن يدرك ذلك إذا تجاوز نظرته الضيقة إلى حدود الكون الرحبة: «بين الحكماء كثيراً من فوائد ما عده الناس شروراً، وذكروا في الحشرات كالديدان والنمل والحية والعقرب والبق والبراغيث والذبان والضفادع والسراطين إنما خلقت من عفونات لو بقيت في الماء والأرض والهواء لكانت أسبابا للوباء فخلقها الله تعالى منها، وجعل غذاءها تلك العفونات التي منها خلقت؛ ليقل بذلك أسباب الوباء، مع ما فيها من المنافع في جملة الأدوية»(٦٠)

وقد أثبتت التجارب العلمية - بعد أن قطع الإنسان شوطا واسعا في

---

(٥٩) الجاحظ. الحيوان. تحقيق: عبد السلام هارون. دار إحياء التراث. بيروت. ط٣ ١٩٦٩. ج٢. ص١٠٣.

(٦٠) الأصفهاني الراغب. الاعتقادات. تحقيق: شمران العجلي. مؤسسة الأشرف. بيروت. ١٩٨٨. ص ٢٣٥.

التقدم – أن جميع المخلوقات قد وجدت لمنفعة الإنسان – بوجه من الوجوه – إذا فهمت ميزاتها الخلقية، وازدادت هذه الفكرة رسوخاً وصدقاً بعد أن ذاق الإنسان وبال اعتدائه على عناصر الطبيعة الحية؛ لاعتقاده أنها شر وأذى يستوجب القضاء عليه.

فديدان الأرض التي يشمئز الإنسان من منظرها ولا يتورع عن دوسها بقدمه في احتقار قد تبين للعلماء أنها أنفع الحيوانات كلها على الإطلاق، وأنها أكثر نفعا للإنسان من الأغنام والأبقار وغيرها. لأنها العامل الأساسي في تهوية التربة؛ «فهي حين تحفر الأرض إنما تحدث فيها فتحات تساعد جذور النبات على اختراق الأرض، وتعمل على تهوية التربة عن طريق اندفاع الهواء والماء في هذه الفتحات، وأن هذه الدودة تقوم بطحن التربة إذ يدخل الطين في حويصلاتها، وبعد طحنه تعيده ترابا خفيفا هشا صالحا للزارعة، كما أنها تجذب أوراق الشجر ومثيله لتدفنه في الأرض؛ حتى يتحلل ويصبح سماداً طيباً للأرض»(٦١).

يقول العالم الكبير جون أرثر تومسون: «إن عدد ديدان الأرض في الفدان الواحد من الأرض الصالحة للزارعة في بريطانيا هو خمسون ألف دودة، وأن القناة الهضمية لهذه الديدان تمر من خلالها عشرة أطنان من التربة سنويا في الفدان الواحد، وأنها تغطي سطح التربة بفضلاتها بمعدل ثلاث بوصات في كل خمسة عشر عاما، إنها بحق أعظم صانع للتربة في العالم، وإنها لأكثر حيوانات العالم أجمع فائدة من الناحية العملية»(٦٢).

ويرد أحد علماء الحيوان على الذين تنقبض نفوسهم من منظر العنكبوت ويتمنون لو أنها لم توجد على الأرض أنه: «لو لم توجد العناكب على الأرض لاختل الميزان، وأهلكت الحشرات كوكبنا. فالعناكب تأكل وحدها في عام واحد من الحشرات ما يقدر وزنه بوزن ثلاثة ملايين رجل»(٦٣).

---

(٦١) نوفل، عبد الرزاق. بين يدي الله. دار الكتاب العربي، بيروت. ص٩٩، ١٠٠.
(٦٢) نوفل، عبد الرزاق. بين يدي الله ص١٠٠.
(٦٣) المرجع نفسه، ص. ١٠١، ١٠٢.

ومن الأمثلة البارزة أيضا على ذلك: أن العلماء قد اجتهدوا في إيجاد المبيد الفعال الذي يقضي قضاء مبرماً على البعوضة ناقلة فيروس الملاريا، وبعد أن أشرفوا على إبادتها تبين لهم الخلل الفظيع الذي أحدثوه في توازن البيئة، فقد ظهرت بعدها أنواع جديدة من الحميات هي أشد فتكاً بالإنسان من حمى الملاريا، تنقلها بعوضة أخرى كانت بمثابة الغذاء المفضل لبعوضة الملاريا، والحاجز الذي يحول بينها وبين الإنسان، عند ذلك أدركوا أن لبعوضة الملاريا دورها الذي تلعبه في توازن البيئة، وأن الوقاية من شرها وأذاها لا يكون بقتلها وإبادتها مما يتنافى مع حكمة خلقها، وإنما بالسعي لإيجاد أفضل السبل للتحصن منها، وخلق المناعة ضد شرها بالتطعيم[٦٤].

وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن المقصود من الاستعاذة برب الفلق من شر مخلوقاته في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[٦٥] إنما تعني الالتجاء إليه وسؤاله سبحانه أن ييسر لنا سبل الوقاية من شر هذه المخلوقات، وليس بالقضاء عليها[٦٦] حتى لا يكون هناك تناقض بين الاعتقاد بحكمة الله وواسع علمه في خلقها وتكليفها بوظيفة معينة، وبين السعي لتفادي أضرارها حفاظا على صحة الإنسان وسلامة مؤهلاته الجسمية والعقلية.

المطلب الرابع
الإنسان أهم عناصر البيئة

ومن معالم التصور الإسلامي للبيئة أيضا: أن الإنسان ليس عنصراً من عناصر البيئة فقط، كما تشير إلى ذلك التعريفات الحديثة، بل هو في نظر

---

(٦٤) الشريف، د. عدنان. بين القرآن الكريم وعلوم البيئة. رسالة الجهاد. س. ٦ ع. ٦٢. يناير. ١٩٨٨ مالطا، ص ٣٧.

(٦٥) الفلق، ١، ٢.

(٦٦) الشريف، د. عدنان. بين القرآن الكريم وعلوم البيئة. ص ٣٧.

الإسلام – أهم عنصر من عناصرها، وأبلغها تأثيراً فيها، فهو – وإن كان يشترك مع البيئة الطبيعية في وحدة العنصر، كون مادته الأولى هي التراب، وفي الخضوع للناموس الإلهي في الوجود والحياة والفناء إلا أنه يتميز عنها بما خصه به الله سبحانه من التفرد في الخلق من حيث استجماعه لعنصري المادة والروح، وهي الميزة التي لا يتوفر عليها مخلوق آخر غيره: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾(٦٧) ومن حيث استواء الخلق الذي يؤهله لأداء وظيفي خاص: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٦٨).

كما يتميز عنها – أيضا – بما زوده الله به من قابلية للتعلم واكتساب المعرفة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾(٦٩)وما حباه به من إرادة حرة تجعله كائنا مستقلا – نوعا ما – عن البيئة التي ينتمي إليها، إذ هو المخلوق الوحيد الذي يتوفر على ملكة الإدراك الواعي التي تؤهله لإحداث التغيرات في البيئة، وقد سمى الله تعالى هذا التمييز تكريما وتفضيلا للإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(٧٠).

وبذلك تم تحديد العلاقة بين الإنسان والبيئة، والتي تقوم على الشعور برابطة القرابة التي تجمعهما بالنظر إلى اتحاد عنصر التكوين الأول، وتوقف حياته على تفاعله مع مكوناتها، وفي الوقت ذاته وعي الإنسان بتميزه عنها لأداء دور خاص فيها، استجابة للإرادة الإلهية التي رشحته لهذه الوظيفة.

---

(٦٧) الحجر، ٢٨، ٢٩.

(٦٨) التين، ٤.

(٦٩) البقرة، ٣١.

(٧٠) الإسراء، ٧٠.

المطلب الخامس

تسخير البيئة للإنسان

ومن مقتضيات هذا التكريم تسخير جميع عناصر البيئة للإنسان، وجعلها منحة مبذولة له، يتصرف فيها وينتفع بمواردها في إطار القيام بمهمة الخلافة في الأرض، باعتبارها الغاية من وجوده في الحياة.

ومعنى التسخير: أن جميع عناصر البيئة قد خلقها الله بحيث تكون مهيأة لاستقباله، صالحة لاستقراره، معدة لأن تتفاعل موجوداتها كلها مع حركته فوقها. وتتجلى مظاهر هذا الإعداد الرباني في كل ما يحيط به من جمادات ونباتات وحيوانات, قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[(٧١)]. قال القرطبي: «أي سخرناها لهم حتى يقود الصبي الجمل العظيم، ويصرفه كيف يشاء، لا يخرج عن طاعته»[(٧٢)].

وقد تنبه علماء المسلمين إلى التناسب الموجود بين قدرات الإنسان وسائر الموجودات في العالم، وخلصوا إلى تقرير أن ذلك أمر مقصود من الله سبحانه وتعالى؛ ليحقق إرادته في استخلاف الإنسان في الأرض عن طريق تسخير كائناتها له، ومن ذلك: ما ورد في كتاب تفصيل النشأتين للراغب الأصفهاني الذي أكد أن الإنسان هو المقصود من العالم، وأن كل ماعداه موجود لأجله فقال: «المقصود من العالم وإيجاده – شيئاً بعد شيء – هو أن يوجد الإنسان، فالغرض من هذه العناصر وتوازنها: أن يحصل منها النبات، ومن النبات: أن يحصل الحيوانات ومن الحيوانات: أن تحصل الأجسام البشرية، ومن الأجسام البشرية: أن يحصل منها الأرواح الناطقة، ومن الأرواح الناطقة: أن يحصل منها

(٧١) يس، ٧١، ٧٢، ٧٣.

(٧٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. دار الكتاب العربي بيروت. ط١. ١٩٦٧. ج١٥، ص٥٥.

خلافة الله تعالى في الأرض... وجعل تعالى الإنسان سلالة العالم وزبدته، وهو المخصوص بالكرامة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[(٧٣)] وجعل ما سواه كالمعونة له»[(٧٤)].

وقد تناول ابن رشد هذه الفكرة نفسها، وأكد أن التوافق العجيب الموجود بين الإنسان والأرض من آثار القدرة الإلهية الحكيمة، فقال: «إن جميع الموجودات – التي ههنا – موافقة لوجود الإنسان، وهذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق، فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك، باعتبار موافقة الليل والنهار، والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له، والمكان الذي هو فيه أيضا، وهو الأرض. وكذلك تظهر أيضا موافقة كثير من الحيوان له، والنبات والجماد، وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار، وبالجملة الأرض والماء والنار والهواء، وكذلك – أيضا – تظهر العناية في أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان، أعني كونها موافقة لحياته ووجوده»[(٧٥)].

والله سبحانه وتعالى حينما أعد البيئة لتكون مسخرة للإنسان، لم يشأ أن يجعلها ممهدة تمهيداً كاملاً فيميل البشر إلى الكسل، ويركنون إلى السلبية، كما لم يشأ – أيضا – أن يجعلها لغزا محيراً، ومجالاً مستغلقاً عن النظر، وغامضاً يأبى كل محاولات الفهم والكشف والاستفادة[(٧٦)]، بل قدر أن تكون في متناول الإنسان شرط أن يوظف طاقاته العقلية والجسمية، ويستنفرها، ليبدأ رحلة المقاومة

---

(٧٣) الإسراء، ٧٠.

(٧٤) الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين. تحقيق: د. عبد المجيد النجار. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ١٩٨٨. ص١٠.

(٧٥) ابن رشد، مناهج الأدلة في عقائد الملة. تحقيق: محمود قاسم. مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة. ط. ٣ ١٩١٩. ص. ١٥١، ١٥٢.

(٧٦) خليل، د. عماد الدين. حول إعادة تشكيل العقل المسلم، سلسلة كتاب الأمة، رئاسة المحاكم الشرعية، قطر. ط١، ١٤٠٠هـ، ص٩٧.

والتحدي، والدأب والمعاناة، والفشل والنجاح، الإبداع والإخفاق، حتى تكتسي حياته فوق الأرض طابع الاجتهاد المفضي إلى تحقيق الاستخلاف: «وكل ذلك في سبيل الإعداد لمصير دائم في الحياة الأخرى يكون محكوماً في سعادته وشقائه بقدر ما يتحقق من مهمة التعمير التي تثمر الترقية الفردية والجماعية للإنسان»(٧٧).

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه التهيئة بعبارة ﴿التذليل﴾ التي توحي بمعاني التمهيد، والتسهيل، والتيسير، والإعداد، والتجهيز الذي يمكن الإنسان من مباشرة عملية الاستخلاف. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾(٧٨)، قال ابن كثير: «... ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة، لا تميد ولا تضطرب، بما جعل فيها من جبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار»(٧٩).

وإدراك الإنسان المسلم لحقيقة التسخير التي أفاض القرآن والحديث في بيانها وتوضيحها، يجعل علاقته بالبيئة علاقة توافق وانسجام تنتفي فيها مشاعر التناقض والغربة، وتغيب أحاسيس العداء والاستعصاء لتتحول إلى سعي رفيق لفهمها وسبر أغوارها، واكتشاف خباياها لإماطة اللثام عن بعض مظاهرها التي تبدو عدوانية، والتي يدرك المسلم أن وراءها حكمة ومنفعة، يتوجب عليه استيعابها ليتم له تسخيرها وفق أحسن الأساليب وأقومها.

المطلب السادس
تعمير البيئة

وقرر الإسلام – إلى جانب ذلك – أن هذه البيئة الموزونة بأرضها وسمائها، ومائها وهوائها ودوابها، مسخرة للإنسان؛ ليعمرها بما يصلح حاله،

---

(٧٧) النجار، د. عبد المجيد. قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص ١٧٧.
(٧٨) الملك، ١٥.
(٧٩) أبن كثير، تفسير القرآن العظيم. دار الفكر. بيروت ١٩٧٠، ص ج٤، ص ٣٩٨.

وما يلبي حاجاته الضرورية والكمالية على السواء، ويسعى في منا كبها بالعمل الجاد المثمر، ليستخرج كنوزها وثرواتها تحقيقا لوظيفة الخلافة المنوطة به، والتي تتطلب منه استثمار مقدرات البيئة، والتفاعل معها في حدود الالتزام بالمنهج الإلهي الذي يضيء له الطريق، ويرسم له أبعاد وظيفته الحضارية.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى العمران جزءاً أساسيا من تكوين الإنسان الفطري حين ربط بينه وبين حاجات الإنسان الأساسية ربطا عميقا يجعله مدفوعا إلى الإعمار دفعا، لأنه ليس بمقدوره أن يتوقف عن السعي في مناكب الأرض، لارتباط هذا السعي بوجوده، كما هو الحال في حاجته الدائمة إلى الغذاء والكساء والمأوى وما إليها، وهذا ما يفسر حركة الإنسان فوق الأرض، وتفاعله مع مختلف المظاهر الطبيعية منذ فجر التاريخ، وسعيه الدائم لتسخيرها بما وهبه الله من طاقات عقلية، وقدرات جسمية، غير أنه أرشده إلى مراعاة التوجيهات الإلهية في حركته العمرانية، وأوجب عليه أن تصب جميع نشاطاته في إطار إصلاح البيئة وتنميتها وتطويرها، بما يكفل للبشرية الاستفادة من كل ما أودع الله فيها من الخيرات، وتجنب إفسادها والإضرار بعناصرها؛ لتبقى موردا دائما للرزق الوفير.

من هنا اعتبرت البيئة – في المنظور الإسلامي – أمانة وضعها الله في يد الإنسان، ومكنه من ناصيتها، وأخضع له جميع مكوناتها؛ ليتصرف فيها تصرف السيد في أملاكه، وسماها استخلافا، ومعناه أن الله تعالى قد أناب عنه الإنسان في هذا الوجود، ليتصرف في مملكته الكونية طبقا لحق الاستخلاف الذي وهبه إياه.

ومن ثم فالخلافة هي تكليف إلهي للإنسان ليباشر مهمة الإعمار والبناء في الأرض وفق إرادة الله، لتتحقق بذلك العبودية الكاملة لله في هذا الكون ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٨٠].

---

(٨٠) البقرة ٣٠.

غير أن استخلاف الإنسان في الأرض ومنحه مطلق السيادة على الكون لا يعني أنه مالك له، وإن كان سيدا عليه، فهو ليس حاكماً بالأصالة، وإنما حاكم بالتفويض، أي أن الله أطلق يده بالتصرف في الأرض للقيام بأعباء أمانة الاستخلاف، وهو ما توحي به كلمة الخليفة التي تعني في جملة ما تعني النيابة أو الوكالة. وعليه، فهو غير مخول أن يسير في الأرض بهواه منفصلا عن توجيه الله سبحانه وتعالى، لأن هذا يتنافى مع طبيعة الاستخلاف الذي يستلزم – في جوهره – أن يظل الإنسان الخليفة مرتبطا بمن استخلفه ارتباطاً مستمراً، وأن يجتهد اجتهاداً دائماً للاقتراب منه، وذلك بالعمل الدائب والكدح المستديم لترقية ذاته وتنميتها حتى تنصاع لمنهجه في الإعمار والإصلاح، وبذلك تتحقق وظيفة الاستخلاف في مستوياتها الراقية.

ويترتب على هذا المبدأ، أن جميع الكائنات التي تكون البيئة هي ملك لله وحده، وهي مسخرة للإنسان على سبيل الاستخلاف والائتمان؛ ليعبد الله من خلال تفاعله معها بالتعمير والإصلاح. ولذلك فإن كل ما يوضع في متناول يده منها يكون على سبيل العارية، ومن مقتضيات الأمانة: أن ينتفع بها المؤتمن في حدود ما يحتاج إليه من أسباب الرزق، مع مراعاة شروط صاحب الملك الحقيقي الذي أنهى إليه أنه أصلح له الأرض وحذره من إفسادها: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[81] وقال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾[82] فقوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ يشير: «إلى أن كل ما في بيئة الأرض من مسخرات للإنسان هو عارية تعود إلى صاحبها الحقيقي الذي هو الله عز وجل عندما يخرج المنتفع بها من الدنيا بوفاته»[83].

---

(٨١) الأعراف، ٨٥.
(٨٢) البقرة، ٣٦.
(٨٣) الفقي، محمد عبد القادر. "المفهوم الإسلامي للبيئة" مجلة الفيصل. السعودية. ع٢٢٥. أغسطس ١٩٩٥، . ص ٥٧.

المطلب السابع

كفاية البيئة

وقد تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية وعداً صادقاً لبني آدم، إن هم عمروا الأرض بالإحسان، وتعهدوها بالإصلاح، وحافظوا على عناصر بيئتها من التخريب والتدمير والإفساد، أن تظل هذه البيئة تتفجر بالخيرات، وتجود بالأقوات، وتضمن لهم رغد العيش وطيب المقام، لا يخشون فيها جوعاً ولا ضنكاً إلى أن يأذن ربها بفناء العالم.

وجاءت الآيات القرآنية مؤكدة تكفل الله بالأرزاق وإرسالها الدائم لضمان كفاية البيئة، حتى يتمكن الإنسان من أداء دوره الاستخلافي وهو آمن إلى أنها لن تلقي به إلى المجهول، إن هو دأب على استثمارها وتنميتها، وتفنن في استغلال مواردها والاستنفاع بها، قال تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(٨٤)، وقال عز وجل ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾(٨٥).

وقدر الله أن تتنوع مظاهر هذه الكفاية متدرجة مع نشاط الإنسان العمراني، وترقيه في سلم التقدم المادي الذي يفتح له باستمرار أبوابا جديدة للرزق، وتتكشف له موارد غنية للاستنفاع، مما يدل على أن بعض عناصر البيئة القابلة للاستثمار ظاهرة، متيسرة للإنسان، بينما بعضها الآخر كامن لا يتمكن الإنسان من الاستفادة منها إلا إذا حان الوقت الذي قدره الله لها(٨٦)، وهو ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ

---

(٨٤) هود، ٦.

(٨٥) فصلت، ١٠.

(٨٦) النجار، د عبد المجيد. قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص ١٤٠.

﴿مَّعۡلُومٖ﴾[87] وفي قوله عز وجل: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾[88]: «إنه رزق في البيئة موفور في غير نفاد، ولكن بعضه منظور ناجز، وبعضه خفي مقدر في ظهوره بأوقات تقتضيها الحكمة»[89].

ومن تأملنا في هذه التوجيهات، يتبين لنا أن الإسلام قد وضع الأسس المتينة التي يقوم عليها التصور الإسلامي للبيئة، وأرسى القواعد العامة التي تضبط سلوك المسلم البيئي، وتوجه نشاطه الفكري الذي يعد الصورة الأصلية لنشاطه المادي والوجه الثاني له لما بينهما من الاتصال العضوي المحكم والتفاعل المستمر، كما حدد بدقة نوعية العلاقة التي تربط الإنسان بعناصر البيئة، والتي تخوله حق التصرف الواسع فيها بالاستثمار والتنمية والتطوير في إطار القوامة التي تدفعه - في الوقت ذاته - إلى المحافظة عليها وحمايتها، والرحمة بمخلوقاتها، والرأفة بكائناتها؛ حتى يفضي تعامله معها إلى العمران والإصلاح الذي سيكون الرصيد الذي يحمله معه إلى أخراه، باعتبار أن جميع أعماله في الحياة الدنيا أعمالاً تعبدية يبتغي بها وجه الله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾[90].

---

(٨٧) الحجر، ١٩، ٢٠، ٢١.

(٨٨) الشورى، ٢٧.

(٨٩) النجار، د عبد المجيد. قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص١٤١.

(٩٠) الملك، ٢.

المبحث الرابع

النهي عن الإفساد في الأرض، المعاني والإيحاءات

لقد قابل اهتمام القرآن الكريم والسنة الشريفة بالبيئة، وحرصهما على بيان قيمتها الحقيقية وعلاقة الإنسان بها، ومسؤوليته في الحفاظ عليها وصيانتها كجزء صميم من مهمته الاستخلافية التي وجد من أجلها، تحذيراتٌ وإرشاداتٌ عديدة تحظر عليه الإساءة إليها، والعبث فيها بأي شكل من الأشكال، ومن مجموع هذه التوجيهات يمكننا استخراج فقه بيئي يشكل في صيغته النهائية نظاما متكاملا لعلاج التلوث البيئي، ويقع على عاتق المفكرين المسلمين السعي الجاد لتأصيله وبلورته؛ ليتمكن من الإسهام بقوة في توجيه الفكر البيئي الحديث وإثرائه..

وعبر القرآن الكريم عن الاختلال الذي يمكن أن يصيب البيئة، أو يدمر بعض عناصرها، أو يعطلها عن أداء وظائفها الطبيعية بالفساد. حيث ورد النهي الشديد عن الإفساد في الأرض، لأنها في أصل خلقتها صالحة بكل مكوناتها لعيش الإنسان.

وتوعد الله المفسدين بسوء المنقلب وشديد العقاب، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٩١) وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٩٢) في إشارة واضحة إلى أن الله تعالى قد أصلح الأرض وهيأها، وقدر مكوناتها، وجعلها ملائمة للبشر والأحياء، وكل اعتداء على توازنها يعتبر اعتداء على الحياة، وبين أن إفساد البيئة بإهلاك الحرث والنسل من خلق الجبارين الذين لم يخالط صدق الإيمان قلوبهم.

(٩١) الأعراف، ٥٦.

(٩٢) الأعراف، ٨٥.

ولعل أبلغ آية وصفت في دقة وصدق حالة الأرض في عصرنا، بعد أن امتد التلوث إلى جميع موارد البيئة وأحدث فيها دمارا مريعا قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٩٣].

والفساد في اللغة هو: التلف، والعطب، والاضطراب، والخلل. والفساد – أيضا – إلحاق الضرر. يقال: فسد الرجل أي جاوز الصواب والحكمة، وفسدت الأمور أي اضطربت وأدركها الخلل[٩٤] وعرف الراغب الأصفهاني الفساد بأنه: "خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة"[٩٥].

وقد اختلف المفسرون في معنى الفساد فقالوا إنه الجدب والغلاء، وكثرة الحرق والغرق، وقلة الصيد وكساد التجارة، ومحو البركات، وفشو المظالم، وقلة المنافع، وتسلط الأعداء وما إلى ذلك مما يترتب عن المعاصي والموبقات. وجمع القرطبي جملة من هذه الأقوال في تفسيره للآية فقال: «قوله تعالى: (ظهر الفساد في البر والبحر) اختلف العلماء في معنى الفساد والبر والبحر. قال قتادة: الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد، وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: فساد البر قتل ابن آدم أخاه: قابيل قتل هابيل، وفي البحر بالملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً. وقيل: الفساد: القحط، وقلة النبات وذهاب البركة، ونحوه، قال ابن عباس قال: هو نقصان البركة بّأعمال العباد؛ كي يتوبوا. قال النحاس: وهو أحسن ما قيل في الآية، وعنه أيضا: أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم، وقال عطية: فإذا قل المطر، قل الغوص عنده، وأخفق الصيادون، وعميت دواب البحر... وقيل الفساد: كساد الأسعار، وقلة المعاش،

---

(٩٣) الروم، ٤١.

(٩٤) المعجم الوسيط، ص ٦٨٨.

(٩٥) الأصفهاني، الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن ص٣٩٢.

وقيل: الفساد: المعاصي، وقطع السبيل والظلم، أي صار هذا العمل مانعا من الزرع والعمارات والتجارات...»(٩٦)

وإذا كان القدماء قد حصروا معنى الفساد في ارتكاب المعاصي، والجور والظلم وقلة الغيث وتأثير ذلك كله في النباتات والأحياء، فإن إعجاز القرآن يتجاوز حدود الزمان والمكان، ليستوعب بمدلولات ألفاظه جميع ما يطرأ من تغيرات على مدى العصور وتطور العلوم، فتظل هذه المعاني صحيحة، لها ما يؤكدها في الواقع الذي يكشف عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم، وأن فساد قلوبهم وميلهم نحو اقتراف الآثام وإتيان المحرمات يوقع في الأرض الفساد، لكن الظروف المستجدة تمد في مساحة النص القرآني لتجعله عرضا واقعيا معجزا لمشكلة تلوث البيئة، من حيث إشارته إلى ما أصاب البر والبحر من فساد، وتحميله الإنسان مسؤولية وقوعه، ثم تأكيده في الأخير أنه هو الوحيد الذي سوف يتحمل عواقب هذا الفساد الذي تسبب فيه "ليذيقهم بعض الذي عملوا"، وبذلك يكون النص القرآني قد أحاط بجميع جوانب المشكلة.

وقد جمع القرضاوي جملة من مظاهر الإفساد التي رأى أن النص القرآني قد تضمن معانيها، وحددها فيما يلي: «الإفساد في الأرض يشمل الإفساد المادي بتخريب العامر وإماتة الأحياء، وتلويث الطاهرات، وتبديد الطاقات، واستنزاف الموارد في غير حاجة ولا مصلحة، وتعطيل المنافع وأدواتها. كما يشمل الإفساد المعنوي: كمعصية الله تعالى، ومخالفة أمره، والكفر بنعمته، والتمرد على شريعته، والاعتداء على حرماته، وإشاعة الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وترويج الرذائل، ومحاربة الفضائل، وتقديم الأشرار، وتأخير الأخيار، وتجبر الأقوياء على الضعفاء، وقسوة الأغنياء على الفقراء»(٩٧)

---

(٩٦) القرطبي، أحكام القرآن، ج ١٠، ص ٣٥٠.

(٩٧) القرضاوي، د. يوسف. رعاية البيئة في شريعة الإسلام. دار الشروق. القاهرة. ط١. ١٤٢١ هـ. ٢٠٠١م. ص ٦٨ – ٦٩.

وحتى تسلم البيئة من الفساد الذي يتهدد حياة الإنسان، ويستدعي غضب الله وعقابه، تضمنت الشريعة الإسلامية جملة من القواعد التي تحفظ للإنسان صحته وللبيئة توازنها، وتكون مرجعا للمسلمين الذين غلبت عليهم شقوتهم فتاهوا يبحثون عن الحلول هنا وهناك، وراحوا يقتفون أثر الإنسان الغربي في حيرته واضطرابه بين المذاهب والنظريات، بينما الحبل المتين الذي سينقذ الإنسانية من هلاك محتم بين أيديهم. ومن أسمى ما شرع الإسلام في مجال الحماية من التلوث:

المطلب الأول

أحكام الطهارة

أبدى الإسلام اهتماماً كبيراً بجسم الإنسان، وجعل الحفاظ على الصحة واجباً مفروضاً على كل مسلم، وخص هذا الجانب المهم بأحكام كثيرة تضمن له الصحة الطيبة التي تمكنه من ممارسة العبادات، وتعينه على السعي في الأرض، والقيام بمسؤولياته الاجتماعية، وشملت هذه الأحكام جميع ما يتعلق بالإنسان، ابتداء من طهارة البدن، إلى طهارة الثوب، وغرف المنزل وأفنيته وأماكن العبادة، والشارع، والحي، وبذلك يكون محيط الإنسان كله خاضعاً لتعليمات واضحة تفرض على المسلمين العناية بنظافته، ومنع التلوث عنه.

وقد اكتست الطهارة في الإسلام بعداً روحياً لارتباطها ارتباطاً وثيقاً بالشعائر التعبدية، فالصلاة التي هي عماد الدين، المفروض أداؤها خمس مرات في اليوم، تتطلب طهارة كاملة في الجسم والثوب والمكان. قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ﴾[98] وقال عز وجل: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[99].

---

(٩٨) المائدة، ٦.

(٩٩) المدثر، ٤.

كما ندب الإسلام غسل الجسد في عموم الأحوال، وأوجبه في بعض الأحوال مما يجعل هذا الغسل يتكرر في اليوم أو الأسبوع كلما استدعى الأمر ذلك، ومن الغسل الواجب: غسل الجنابة، والغسل بعد الحيض والنفاس، وغسل الميت، ومن الغسل المندوب والمستحب: غسل الجمعة، والعيدين، وللإحرام بالحج والعمرة، وصلاة الاستسقاء، والكسوف، وعند الاعتكاف، وعند تغير رائحة البدن، وحضور مجامع الناس. قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: "حق على كل مسلم أن يغتسل كل سبعة أيام يوماً، يغسل فيه رأسه وجسده"(١٠٠).

وتضمن الهدي النبوي إرشادات تهدف إلى حماية الأطعمة من الغبار ووقوع الحشرات المؤذية عليها، والمحافظة على نظافة الماء المعد للشرب والطهي، فقال عليه الصلاة والسلام: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب وأطفئوا السراج؛ فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح بابا، ولا يكشف إناء»(١٠١)، وأمر بنظافة البيوت والأفنية، والتخلص من الفضلات؛ لتجنب التلوث فقال: «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود»(١٠٢).

---

(١٠٠) البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير. اليمامة. بيروت. ط٣. ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م. كتاب الجمعة. رقم ٨٤٧. ج١. ص٣٠٥. وصحيح مسلم. كتاب الجمعة. رقم ١٤٠٢. ج٢. ص٤٣٨. و سنن النسائي. كتاب الجمعة. رقم ١٣٥٠. ومسند أحمد. باقي مسند المكثرين من الصحابة. رقم ٦٩١٦ و٧٠٠٩ و٧٠٩٢ و٧٣٨١ و٧٧٦٧ و٨١٤٧ و ٨٦٨٠ و٩٧٣٩ و٩٩٦٧ و١٠١٣٦ و١٠٢٠٧.

(١٠١) صحيح مسلم. كتاب الأشربة. رقم الحديث ٣٧٥٥، ج٣. ص١٥٩٤. وصحيح البخاري. كتاب بدء الخلق. رقم ٣٠٣٨. وكتاب الأشربة. رقم ٥١٧٦ و٥١٩٢ و٥١٩٣. وسنن الترمذي. كتاب الأطعمة. رقم ١٧٣٤. وكناب الأدب. رقم ٢٧٨٤. وسنن أبي داود. كتاب الأشربة. رقم ٣٢٤٣ و٣٢٤٤. وسنن ابن ماجه. كتاب الأشربة. رقم ٣٤٠١. ومسند أحمد. باقي مسند المكثرين. رقم ١٣٧١١ و١٣٧٦٥ و١٣٩١٢ و١٤٤٨٤ و١٤٦٠٥و ١٤٦٣٤. وأخرجه مالك في الجامع رقم ١٤٥٣.

(١٠٢) الترمذي، محمد بن عيسى. سنن الترمذي. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون. دار إحياء التراث العربي. بيروت. د. ط. د. ت. كتاب الأدب. رقم ٢٧٢٣. ج٥. ص١١١. حديث حسن.

وحث على تطهير بيوت العبادة، فنهى عن التبول والتمخط في المسجد، لما في ذلك من تلويث للمحيط، وإذاية لرواد المسجد وخطر على صحتهم: «عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تعجبه العراجين[(١٠٣)] أن يمسكها بيده، فدخل المسجد ذات يوم وفي يده واحد منها، فرأى نخامات في قبلة المسجد فحتهن حتى أنقاهن، ثم أقبل على الناس مغضباً فقال: «أيحب أحدكم أن يستقبله رجل فيبصق في وجهه، إن أحدكم إذا قام للصلاة فإنما يستقبل ربه، والملك عن يمينه، فلا يبصق بين يديه ولاعن يمينه»[(١٠٤)]، وقدم بنفسه بياناً عملياً للحرص على النظافة، ليرشد المسلمين إلى أن كل إنسان عليه أن يسهم بصورة حية وملموسة في نظافة البيئة التي يحيا في وسطها.

وشملت التعاليم النبوية – بالإضافة إلى البيوت والمساجد – الشوارع والأحياء، حيث جعل النبي الكريم الإشراف على نظافة الطرقات وأماكن مرور الناس ومواضع راحتهم واسترواحهم من أجل الأعمال وأوجبها للثواب وحسن الأجر، وهو ما عبر عنه بإماطة الأذى عن الطريق، حتى إنه جعلها شعبة من شعب الإيمان؛ لما لها من أثر في تنظيف الشوارع والأحياء، ومنع التلوث وما يترتب عنه من انتشار الروائح الكريهة والأمراض المعدية: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان»[(١٠٥)].

---

(١٠٣) العراجين: جمع، مفرده: عرجون، وهو: أعواد النخل اليابسة.

(١٠٤) الحاكم النيسابوري. محمد بن عبد الله. المستدرك على الصحيحين. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٤١١ هـ. ١٩٩٠م. ج١. ص ٣٨٧. وصحيح البخاري. كتاب الصلاة. رقم ٣٩٣، وكتاب الجمعة. رقم ٨٨٣. وصحيح مسلم. كتاب المساجد ومواضع الصلاة. رقم ٨٥٣. وكتاب الجمعة. رقم ١٤٠٦. وسنن النسائي. كتاب الطهارة. رقم ٣٠٧. وكتاب المساجد. رقم ٧١٧. وكتاب الجمعة. رقم ١٣٥٦. وسنن أبي داود. كتاب الصلاة. رقم ٤٠٣ و٤٠٦. وسنن ابن ماجه. كتاب المساجد والجماعات. رقم ٧٥٣. وسنن الدارمي. كتاب الصلاة. رقم ١٣٦٢ و١٥٢٣. وموطأ مالك. باب النداء للصلاة. رقم ٢٢١ و٢٢٢. ومسند أحمد. باقي مسند المكثرين. رقم ١٠٧٥٦.

(١٠٥) صحيح البخاري. كتاب الإيمان. رقم ٨. وصحيح مسلم. رقم ٥٠. ج١. ص٦٣. وسنن =

وخص من هذا الأذى فضلات الإنسان، وشدد في النهي عن قضائها في الأماكن العامة التي يرتادها الناس بكثرة، ونصح بتخير المواضع البعيدة عن الطرقات، حتى يتسنى لهذه الفضلات أن تستوعبها الأرض فتزول آثارها بسرعة بدل أن تبقى عرضة لحركة الأرجل التي تزيدها انتشاراً، وتتسبب في تلوث أكبر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد لبوله موضعاً»[١٠٦]، وتوعد الذين لا يتورعون عن قضاء حوائجهم في الطرقات العامة، وموارد المياه، ومواضع الظلال، التي يلجأ إليها الناس للراحة والتفيؤ بحلول اللعنة، لما في هذا السلوك المشين من أذى للعباد، وتهديد للصحة العامة: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[١٠٧]، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسل فيه»[١٠٨]؛ لأن الماء الراكد الذي لا يجري ولا تتغير مياهه، يحتفظ بجميع الجراثيم والميكروبات التي يحتوي عليها بول الإنسان، ويساعد على تكاثرها ونموها، فيتعفن الماء، ويصبح مصدراً للأوبئة والأمراض المختلفة, وقد أثبتت الأبحاث الطبية الحديثة أن فيروس البلهارسيا الذي يوجد بشكل ابتدائي في بول الإنسان إذا وضع في وسط مائي تحلل وتكاثر بسرعة.

ويدخل في هذا الإطار – أيضا –: نهي النبي صلى الله عليه وسلم المصاب بالطاعون من الانتقال من مكان إلى آخر، لحصر العدوى، والتقليل ما أمكن من عدد الإصابات، ونصحه بلزوم البلد الذي نزل به المرض، كما نهى –

= أبي داود. كتاب السنة. رقم ٤٠٥٦. وسنن الترمذي. كتاب الإيمان. رقم ٢٥٣٩. ج٥. ص١٠. حديث حسن صحيح. وسنن ابن ماجه. المقدمة. رقم ٥٦. ج١. ص ٢٢. ومسند أحمد في باقي مسند المكثرين. رقم ٨٥٧٠ و٨٩٩٣ و٩٣٣٣.

(١٠٦) سنن أبي داود، كتاب الطهارة. رقم ٣. ج١. ص ١. ومسند أحمد. مسند الكوفيين. رقم ١٨٧١٦.

(١٠٧) سنن أبي داود، كتاب الطهارة، رقم ٢٤. ج١. ص ٧. وسنن ابن ماجه. كتاب الطهارة وسننها. رقم ٣٢٣. ج١. ص ١١٩.

(١٠٨) صحيح البخاري، كتاب الوضوء. رقم ٢٣٢. ج١. ص٩٤. وصحيح مسلم. كتاب الطهارة. رقم ٤٢٤.

في الوقت ذاته – القادم إليه من دخوله؛ حفاظا على صحته، وحذراً من أن يعود إلى أهله وهو يحمل بذور المرض، فيخلق بؤر إصابة تهدد الصحة العامة. قال عليه الصلاة والسلام: «الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه»(١٠٩). ووعد الصابرين الذين لا يبرحون إقامتهم ويحتسبون آلامهم لله تعالى بأجر الشهيد: «عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون فأخبرني أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد»(١١٠).

قال القرطبي في تفسيره: «وإذا كان الوباء بأرض فلا يقدم عليه أحد، أخذاً بالحزم والحذر والتحرز من مواضع الضرر، ودفعا للأوهام المشوشة لنفس الإنسان، وفي الدخول عليه الهلاك، وذلك لا يجوز في حكم الله تعالى، فإن صيانة النفس عن المكروه واجبة»(١١١). وهذا الإجراء الوقائي الذي سنه الرسول صلى الله عليه وسلم صار معمولاً به عند الدول الحديثة، بما يعرف بالحجر الصحي الذي تلزم من خلاله الوافدين إليها أن يستظهروا الشهادات التي تثبت خلو أجسامهم من أية أمراض معدية.

ومن مجموع هذه الأحكام الشرعية والتوجيهات النبوية ندرك مدى الاهتمام الذي أولاه الإسلام لنظافة البيئة، وكيف ربط ربطاً محكماً بين الإيمان

---

(١٠٩) صحيح البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء. رقم ٣٢١٤. ج ٦. ص ٢٥٥٧. و صحيح مسلم. كتاب السلام. رقم ٤١٠٨. ٤١٠٩. ٤١١٠. ٤١١١. ٤١١٢. ٤١١٣. وسنن الترمذي. كتاب الجنائز. رقم ٩٨٥. حسن صحيح. ومسند أحمد. مسند الأنصار. رقم ٢٠٧٥٦. ٢٠٧٦٨. ٢٠٧٩٩. ٢٠٨٠٦. ٢٠٨١٠. ٢٠٨١٧. ٢٠٨٢٦. ٢٠٨٥٧.

(١١٠) صحيح البخاري. كتاب الطب. رقم ٥٢٩٣. ج٣. ص ١٢٨١. و مسند أحمد. باقي مسند الأنصار. رقم ٢٣٢٢٢. ٢٤٠٥٦. ٢٤٩٤٣.

(١١١) القرطبي، محمد بن أحمد. تفسير القرطبي. تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني. دار الشعب. القاهرة. ط ٢. ١٣٧٢ هـ. ج ٣. ص ٢٣٤.

الصحيح والالتزام بحسن السلوك تجاه البيئة للمحافظة على نظافتها ونقائها، والمبادرة إلى إزالة كل ما من شأنه أن يلوث المحيط الذي يعيش فيه المسلم.

وقد استنبط الفقهاء من هذه التعاليم القرآنية والنبوية أحكاماً فقهية أخذت مكانها في التشريع الإسلامي الذي كان يمثل دستور الدولة الإسلامية، ووجدت لها مجالاً واسعاً للتطبيق العملي من خلال مؤسسة الحسبة التي كانت تشرف على سيادة القانون في المجتمع، وتحرص على تطبيق الفتاوى والأحكام، وكان لهذه المؤسسة دورها الكبير طوال القرون التي سادت فيها الحضارة الإسلامية في إحلال الأحكام المتعلقة بنظافة البيئة، ومنع التلوث محل التنفيذ بما كان يقوم به أعوانها من مراقبة دورية للمصانع والمتاجر والأسواق وحظائر الحيوانات ومزارع الخضر والفواكه(١١٢)؛ للقضاء على آثار الإهمال أو التجاوز في إلقاء الفضلات وعدم معالجتها، ومعاقبة المسؤولين عنها بالتغريم.

وقد سجلت لنا المؤلفات الكثيرة(١١٣) التي وضعها العلماء في الحسبة الدور المتميز الذي كان يضطلع به المحتسب في مجال نظافة المحيط وحمايته من التلوث، وفصلت في بيان مجالات نشاطه وحدود وظيفته، وذكرت الشروط التي يجب توفرها في الأماكن العامة التي يرتادها الناس. ومن ذلك: ما ذكره الشيزري من أن النظافة العامة كانت من أهم الأعمال التي يقوم بها المحتسب، ففي الحمامات – مثلا – ينبغي للمحتسب أن يأمر بغسلها وكنسها وتنظيفها بالماء الطاهر مرات عديدة في اليوم، وأن يأمر بغسل المجاري من الأوساخ المجتمعة فيها، والعكر الراكد في أسفلها مرة كل شهر، وبإشعال البخور فيها

---

(١١٢) النجار، د. عبد المجيد. قضايا البيئة من منظور إسلامي، ٢٧٦.

(١١٣) من أهم هذه المصنفات: نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن الشيزري. ومعالم القربة في أحكام الحسبة لمحمد بن محمد القرشي المشهور بابن الإخوة. ونهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام. وآداب الحسبة لمحمد بن أحمد السقطي المالقي الأندلسي. بالإضافة إلى فصول طويلة في كتب الفقه المختلفة: كالأحكام السلطانية للماوردي، وإحياء علوم الدين للغزالي، والمقدمة لابن خلدون، وصبح الأعشى للقلقشندي، وإغاثة الأمة للمقريزي، وغيرها.

مرتين في اليوم، ويمنع صاحب الحمام من إدخال المجذوم والأبرص؛ حفاظا على الصحة العامة(١١٤).

وبالنسبة للأطعمة كان المحتسب يراقب محلات الخبازين، فيأمرهم برفع سقائف حوانيتهم، وفتح أبوابها، وجعل منافذ واسعة لسقوف الأفران يخرج منها الدخان؛ لئلا يتضرر الناس، ويشدد على نظافة أوعية الماء وتغطيتها، وغسل المعاجين ونظافتها، وتغطية الخبز وما يحمل عليه. كما كان يأمر الطباخين بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب وهوام الأرض بعد غسلها بالماء الحار والأشنان(١١٥)، ويراقب الجزارين والشوايين وقلائي السمك والحلوانيين(١١٦) وغيرهم من صانعي الأطعمة؛ ليلزمهم بقواعد النظافة، ويمنعهم من الإضرار بالصحة العامة.

ومن جملة مهام المحتسب في المحافظة على نظافة البيئة أيضا: أن يمنع الميازيب الظاهرة من الحيطان، ويلزم أصحاب البيت تعويضها بمسيل محفور في الحائط يتم تكليسه، وأن يمنع مجاري الأوساخ الخارجة من الدور إلى وسط الطريق(١١٧)، وما إليها من الإجراءات والأحكام التي كانت تحرص على نظافة المحيط، وصيانة المرافق العامة، والحفاظ على صحة الناس، وحماية الموارد البيئية من الإتلاف والتبديد؛ استجابة لتعاليم الإسلام التي ألزمت الإنسان بمنهج معتدل في التعامل مع بيئته.

وإذا كان مجال المقارنة بين تجربة الحضارة الإسلامية، وتجربة الحضارة الغربية في هذا الميدان يعد بعيداً شيئاً ما عن المنطق العادل، لما بين ظروف الحضارتين من فرق شاسع، إلا أن الشاهد في هذا المقام، أن الحضارة الإسلامية – بما قامت عليه من توجيه إلهي معصوم – قد استصحبت في

---

(١١٤) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر. نهاية الرتبة في طلب الحسبة. ص ٨٦ – ٨٨.
(١١٥) الأشنان: شجر من الفصيلة الرمرامية، ينبت في الأرض الرملية، يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي (راجع: المعجم الوسيط. ص ١٩).
(١١٦) الشيزري. نهاية الرتبة في طلب الحسبة. ص ٢٢ – ٢٣ – ٣٤.
(١١٧) المصدر نفسه. ص ١٤.

نشأتها وتطورها وتوسيع عمرانها، وتعدد أوجه نشاطاتها العلمية والصناعية فقهاً بيئياً سليماً، حفظ للمحيط الطبيعي سلامته، ومنع الاعتداء على الطبيعة ومواردها إلا في حدود ما يلبي حاجة الأمة إلى ذلك. بينما غاب – في المقابل – هذا الوعي(١١٨) بضرورة حماية البيئة أثناء القيام بالنشاطات الصناعية المختلفة في الحضارة الغربية، فتفاقمت المشكلة – مع مرور الزمن وازدياد وتيرة التقدم العلمي والتقني – حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم. ولو كان لدى الإنسان الغربي تصوراً قيمياً للبيئة لتنبه إلى تطوير تكنولوجيا وقائية بموازاة تطويره للتكنولوجيا الاستثمارية، ولتجنب بذلك الكارثة التي تهدد الأرض الآن.

المطلب الثاني
الاقتصاد في الاستهلاك

وهذه قاعدة إسلامية عظيمة من قواعد حماية البيئة ومحاربة التلوث، لأن التوسع في الاستهلاك والإفراط فيه – وهو ما يعرف في الإسلام بالإسراف والتبذير – يعد في العصر الحاضر مسؤولا عن قسم كبير من أسباب التلوث البيئي.

فالإنسان الغربي – الذي قطع صلته بالسماء وانتفت الغائية من حياته كما أسلفنا – وأصبحت اهتماماته تنحصر في إشباع شهواته، وإرضاء نزواته، وإطلاق العنان لغرائزه قد أفرط إفراطا كبيراً في استهلاك الضروريات والكماليات على السواء، وتجاوز حدود الحاجة إلى الإسراف، مما كان له أثره البارز على تلوث البيئة، بما يترتب عن الاستهلاك الزائد عن الحاجة من إرهاق لمواردها، وإثقال لكاهلها بالفضلات التي تطرحها المشاريع الصناعية والمنازل.

ذلك أن الحضارة الغربية التي قامت على مبدأ تحقيق الرفاهية القصوى للفرد، لم تعر اهتماما لما يمكن أن يصيب موارد البيئة من استنزاف، أو ما

(١١٨) المصدر نفسه. ص، ٢٧٧.

يتخلف عنها من ملوثات، فتوسعت في الصناعات الاستهلاكية التي استنفذت مقادير هائلة من المعادن، ومثلها من الطاقة، سواء في شكل بترول أو خشب أو فحم حجري، وكميات كبيرة من المياه العذبة التي تدخل المصانع صافية وتخرج منها ملوثة بالسموم الكيمياوية(١١٩)، إضافة إلى الغطاء النباتي الذي يتعرض للاعتداء المستمر، والثروة الحيوانية التي يتهدد الانقراض أنواعاً كثيرة منها.

وتبدو مظاهر هذا الإسراف والتبذير الفظيع الذي يطبع سلوك الفرد الغربي واضحة فيما تلقيه المنازل يومياً من فضلات الطعام الصالح للأكل بعد أن يعزف أصحابه عنه. ويقدر بعض الدارسين أن كميات المواد الغذائية الملقاة في قمامات الدول الصناعية تكفي لغذاء شعوب كثيرة تعاني المجاعة والجفاف, وقد انتقلت هذه العادة السيئة إلى بعض الدول العربية التي يتمتع أفرادها بمستوى معيشي مرتفع، وأصبحت تعبر عن حالة اللاوعي التي يعيشها الإنسان المعاصر، وغفلته عن الجروح الغائرة التي يحدثها في البيئة بهذا الاستنزاف الجائر لقدراتها..

ففي الكويت مثلا، تشير بعض الدراسات إلى أن ما يلقى ويتلف من مواد غذائية تبلغ نسبته قرابة ٤٥٪ من حجم القمامة كلها. أي أن نصف القمامة فضلات مختلفة، ونصفها الآخر مواد غذائية تم إتلافها، سواء بعد تخزينها لمدة طويلة فقدت معها صلاحيتها للاستهلاك، أو بعد إعدادها للأكل، وغالبا ما يكون ذلك أثناء الحفلات والأعراس(١٢٠).

كما تبدو مظاهر الإسراف – أيضا – في حالة الخواء الروحي التي جعلت الإنسان الغربي يبحث دائما عن الجديد، ويميل بشكل مستمر إلى التغيير في نمط الحياة، والذي يعبر عنه بمتابعته الشغوفة لأحداث الموضة، وتفنن أصحاب

---

(١١٩) المصدر نفسه. ص ٥١.

(١٢٠) الفقي، محمد عبد القادر. "الإسراف وتأثيره على البيئة واستنزاف مواردها". مجلة منار الإسلام. الإمارات العربية المتحدة. مارس ١٩٨٩. ص ٥٦.

السلع الاستهلاكية في صياغة إعلاناتهم، واستفزاز رغبات الفرد وشهواته مما يدفعه دفعا إلى الاستغناء عن ممتلكاته القديمة واقتناء أخرى جديدة لإرواء ذلك الإحساس بالضياع الذي ينتابه، فإذا البيوت تطرح باستمرار أدوات منزلية، وآلات ترفيهية، وأثاثاً لا يزال صالحاً للاستعمال لمدة طويلة، وثياباً لم تلبس سوى مرة أو مرتين، ليتم استبدال كل ذلك بما يغايره في الشكل أو اللون[١٢١]، أو طريقة الاستخدام، لإرضاء شراهة الإنسان إلى الاستهلاك الواسع والمستمر.

وقد تحدث وزير البيئة البرازيلي بأسى عن الاستنزاف الهائل الذي تتعرض له غابة الأمازون، وقال: إن الغطاء النباتي الذي تحرم منه الأرض ويتسبب فقدانه في تصحر الأراضي، وتغير المناخ يتحول جزء كبير منه بعد تصنيعه إلى أكوام من الأوراق تشبه الجبال لا تحمل سوى ضروباً من توافه الصور والكتابات الترفيهية، ويذهب قسم آخر منه إلى صناعة سلال القمامة الخفيفة، وبعض الأنواع من الأثاث الرخيص[١٢٢] في إشارة إلى حمى الاستهلاك التي طغت على سكان العالم المتحضر، فأصبحت تدمر الموارد البيئية تدميراً فظيعاً، يصعب تداركه في سبيل أهداف وضيعة، وغايات كمالية.

ويدخل في هذا الإطار أيضا: ما تتعرض له الثروة الحيوانية في الغابات من إبادة على يد القناصين الذين يتخذون من الحيوانات البرية هدفاً في رحلات الصيد الترفيهية، أو أولئك الذين لا يتورعون عن قتل مئات الحيوانات وترك جثثها في العراء في سبيل الحصول على فروها، أو أنيابها العاجية[١٢٣]، أو جلودها الثمينة، لصنع الحلي أو ثياب السهرات الفارهة وحقائب اليد الجميلة.

وحتى يتفادى الإنسان هذه النتائج الوخيمة، ويحافظ على سلامة البيئة ومواردها من البعثرة والتلف، حارب الإسلام الإسراف والتبذير، وعده تهوراً

---

(١٢١) آل قور، الأرض في الميزان. ص ١٦٥.

(١٢٢) المرجع نفسه، ص ١٢٣.

(١٢٣) الحفار، محمد سعيد. بيئة من أجل البقاء. دار الثقافة. الدوحة. قطر. ١٩٩٠. ص١٥٥.

وتسرعاً واستهتاراً، وتوعد المسرفين بالهلاك وسوء المآل. قال تعالى في وصف عباده المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[١٢٤]، وأرشد القرآن الناس إلى التجمل بأنواع الزينة، والتوسع في التمتع بالمشتهيات، والتلذذ بألوان الطيبات، شريطة القصد والاعتدال، وحسن النية والوقوف عند الحدود الشرعية: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[١٢٥]

والسرف في اللغة: هو مجاوزة الحد في كل فعل يأتيه الإنسان[١٢٦]، وجاء في لسان العرب: «السرف والإسراف مجاوزة القصد. وأسرف في ماله عجل من غير قصد. وأما السرف الذي نهى الله عنه: فهو ما أنفق في غير طاعة الله – قليلا كان أو كثيرا –، والسرف: ضد القصد... والسرف: تجاوز ما حد لك»[١٢٧] كما يحمل معاني الإفراط والإغفال والخطأ، ووضع الشيء في غير موضعه. وبذلك تتضح لنا العلاقة بين الإسراف والتلوث: «فإذا كان الإسراف يعني مجاوزة الحد، ووضع الشيء في غير موضعه، فإن هذا هو المعنى الذي ينص عليه تعريف التلوث. فكأن الإسراف في معناه اللغوي هو التلوث بمفهومنا الحالي، سواء أكان التلوث ناجما عن وجود شيء مادي أم طاقة في غير الموضع الطبيعي، أو وجود أي منهما في مكانه الطبيعي بكميات تتجاوز الحد، الأمر الذي يؤدي إلى الإخلال بالتوازن البيئي»[١٢٨].

---

(١٢٤) الفرقان، ٦٧.
(١٢٥) الأعراف، ٣١، ٣٢.
(١٢٦) الأصفهاني، الراغب. معجم مفردات ألفاظ القرآن. ص ٢٣٦.
(١٢٧) راجع: ابن منظور. لسان العرب. مادة: سرف.
(١٢٨) الفقي، محمد عبد القادر. "الإسراف تأثيره على البيئة واستنزاف مواردها". ص٥٣.

وقد نهى الإسلام عن الإسراف بجميع صوره، وعده إفساداً في الأرض: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾(129)، وتجاوزاً لحد العدل الذي تتطلبه وظيفة الإنسان التعميرية، وفي الوقت نفسه إضراراً بموارد البيئة، وإخلالاً بتوازنها ومن بين الموارد التي جاء النهي الشديد عن الإسراف فيها:

الفرع الأول

المياه

جاءت الأحكام الشرعية الإسلامية لتنبه إلى أهمية الماء في الحياة، وتحظر الإسراف في استهلاكه في أغراض الشرب والصناعة والزراعة، وحتى في مجال العبادات، وسواء أكانت هذه المياه متوفرة بكثرة أم محدودة الكمية، لأن العبرة بالتصرف الأخلاقي المتوازن فيها، وليس بالنظر إلى كثرتها أو قلتها؛ حتى تحافظ البيئة على هذا المورد المهم، قال مجاهد:" لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذرا، ولو أنفق مدا في غير حق كان مبذرا"(130).

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بسعد وهو يتوضأ، فقال: (ما هذا السرف يا سعد؟) فقال: أفي الوضوء سرف؟ قال: (نعم وإن كنت على نهر جار)(131). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ بالمد، ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد)(132)، قال الشوكاني: «والحديث يدل على كراهة الإسراف في الماء

---

(129) الإسراء، 27.

(130) ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق: محمد على الصابوني. دار القرآن الكريم، بيروت، ط7 – 1981. مج. ص473.

(131) ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني. سنن ابن ماجه. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر. بيروت. د. ط. د. ت. كتاب الطهارة وسننها. رقم 419. ج1. ص147. ومسند أحمد. مسند المكثرين من الصحابة. رقم 6768. ج2. ص 221.

(132) صحيح البخاري. كتاب الوضوء. رقم 194. صحيح مسلم. كتاب الحيض. رقم 490. ج1. ص258. سنن النسائي. كتاب المياه. رقم 343. ج1. ص180. سنن أبي داود. =

للغسل والوضوء، واستحباب الاقتصاد، وقد أجمع العلماء على النهي عن الإسراف في الماء ولو كان على شاطيء النهر، قال بعض أصحاب الشافعي: إنه حرام، وقال بعضهم: إنه مكروه كراهة تنزيه»(١٣٣).

وفي حديث عمرو بن شعيب قال: إن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف الطهور؟ فدعا بماء في إناء فغسل كفيه ثلاثا، ثم غسل وجهه ثلاثا ثم غسل ذراعيه ثلاثا، ثم مسح برأسه، وأدخل إصبعيه السبابتين في أذنه، ومسح بإبهاميه على ظاهر أذنيه، وبالسبابتين باطن أذنيه، ثم غسل رجليه ثلاثا، ثم قال: (هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم، أو ظلم وأساء»(١٣٤).

ومعنى هذا: أن كل استهلاك للماء يتجاوز القدر المطلوب المؤدي للغرض، ويتسبب في إهدار كميات منه بدون سبب يعد في الإسلام إساءة وظلما. وقد استند الفقهاء إلى هذا الحديث ليقرروا أن الزيادة في غسل الأعضاء للوضوء على الثلاث الواردة في الحديث مكروهة إذا كان الماء مباحاً أو مملوكاً لصاحبه، أما إذا كان موقوفاً مثل ماء المساجد والمدارس فإن الزيادة فيه على الثلاث حرام عند جمهور الفقهاء(١٣٥)، لأن الغرض منه هو الوضوء الشرعي فقط. فإذا كان التشديد في استهلاك الماء في حالة العبادة والتطهير هذا شأنه، فمن باب أولى أن يلتزم الإنسان الحد المعتدل في الحالات الأخرى: كالطهي، والتنظيف والاستحمام، وغيرها.

= كتاب الطهارة. رقم ٨٧. ج١. ص ٢٣. ومسند أحمد. باقي مسند المكثرين. رقم ١١٦٦٢ و١١٧١٣ و١٢٣٧٤ و١٣٢٢٠ و١٣٢٨٨ و١٣٤٨٩.

(١٣٣) الشوكاني، محمد بن علي. نيل الأوطار. دار الجيل. بيروت. د. ط. د. ت. ج١. ص٢٥٠.

(١٣٤) سنن أبي داود. كتاب الطهارة. رقم ١١٦. ج١. ص٣٣. وسنن النسائي. كتاب الطهارة. رقم ١٤٠. ج١. ص ٨٨.

(١٣٥) راجع: العظيم آبادي، محمد شمس الحق. عون المعبود. دار الكتب العلمية. بيروت. ط٢. ١٤١٥ هـ. ج ١. ص ١١٨. راجع أيضا: الزحيلي، د. وهبة. الفقه الإسلامي وأدلته. دار الفكر. دمشق. ط١. ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م. ج١. ص ٢٦١.

الفرع الثاني

المأكل

كما تواترت الأحاديث الشريفة – أيضا – تنهى الإنسان عن أن يكون عبداً لبطنه، فينساق وراء شهواته في التهام ألوان الطعام والشراب، ويتفنن في إعداد أصنافها، وحشو معدته بها، ودعت إلى الاعتدال في كل ذلك؛ لحماية البدن من الأمراض والأسقام الناتجة عن التخمة، وفي الوقت ذاته عدم تحميل البيئة أكثر مما تحتمل من استنزاف الموارد، وتراكم الفضلات.

وإذا كان هذا الأمر لا تبدو آثاره على مستوى الفرد أو الأفراد، فإنه إذا أصبح عادة لشعب أو شعوب بأكملها ظهرت هذه الآثار واضحة. فتبديد الأغذية المنتزعة من موارد البيئة يبدو: «مجسماً متمثلاً في أعداد كبيرة من أجسام غريبة لبني الإنسان، تتحرك في مدن العالم المترف، وقد شوهتها السمنة أيما تشويه، في حين تغالب أكثر الأجسام الأخرى في تلك المدن مغالبة شديدة بأنواع مختلفة من الأساليب، ومقادير عالية من الأموال داء السمنة الذي أصبح هاجساً مخيفاً في ذلك العالم»(١٣٦).

لذلك عد القرآن الكريم تجاوز الحد المعتدل في استهلاك الطيبات عدواناً فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾(١٣٧). قال ابن كثير: «لا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحد فيه»(١٣٨) وحدد الرسول صلى الله عليه وسلم القدر الذي يكفي الإنسان ويلبي حاجته الطبيعية من الطعام والشراب فقال: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن،

---

(١٣٦) النجار، د. عبد المجيد. قضايا البيئة من منظور إسلامي. ص ٥٣.

(١٣٧) المائدة/ ٨٧.

(١٣٨) مختصر تفسير أبن كثير، مج١، ص٥٤٢.

بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[١٣٩].

وبناء عليه، اعتبر الفقهاء تناول الطعام والشراب بالقدر الذي يدفع الهلاك عن النفس فرضاً، والأكل بقدر الشبع مباحاً، وما زاد على الشبع فهو مكروه أو محظور، وقال الحنابلة: إن الأكل الذي يفضي إلى التخمة إسراف، وعدوا ذلك من العدوان المحرم، لأن التخمة سبب في مرض الجسم وفساد البدن[١٤٠].

وبالتزام هذه التعاليم النبوية وتعميمها، وتنشئة الأفراد عليها، يكون الإنسان قد حقق هدفين معاً.

أولهما: المحافظة على صحته وعافيته وسلامة بدنه من الأسقام والعلل التي يجرها الإسراف في الأكل، وهي كثيرة وخطيرة.

وثانيهما: الحد من تبديد موارد البيئة وإتاحة الفرصة لها لتجديد نفسها، واستعادة توازنها، لتبقي منبعاً للنعم على الدوام. وإذا كان هذا الهدف الأخير لم تظهر آثاره قديماً لعدم وجود المبررات التي تستدعيه، فإن المشكلة البيئية في عصرنا الحاضر قد أوضحت البعد الذي تكتسيه هذه الأحكام الشرعية في معالجة أزمة التلوث، من ذلك: أن الدراسات أظهرت أن كمية الطعام الذي ينتج في العالم يكفي لإطعام ثمانية بلايين من الأفراد، بينما سكان الأرض يبلغ عددهم ٥,٣ بليون نسمة[١٤١]، مما يعكس بوضوح أن هناك شعوبا تأكل حتى التخمة وترمي ما تبقى لديها في المزابل، بينما لا تجد شعوب أخرى لقمة لدفع خطر الموت عنها، وإلا ما معنى أن يموت ملايين البشر جوعا بينما المواد الغذائية تكفيهم وتزيد عن حاجتهم؟

---

(١٣٩) سنن الترمذي. كتاب الزهد. رقم ٢٣٠٢. ج٤. ص ٥٩٠. حديث حسن صحيح. وسنن ابن ماجه. كتاب الأطعمة. رقم ٣٣٤٠. ج٢. ص ١١١١.

(١٤٠) الفقي، محمد عبد القادر. "الإسراف وتأثيره على البيئة واستنزاف مواردها". ص٦١.

(١٤١) قسم التوثيق/ "قمة الأرض: ارتباط البيئة بالاقتصاد". مجلة منبر الحوار. بيروت. س٧. ع٢٥ صيف ١٩٩٢. ص ٩٦.

إن الإسراف في استهلاك الأغذية سواء بتناولها أو بتبديدها كما تفعل الدول الرأسمالية التي تحرق أكوام القمح والرز وتصب آلاف اللترات من الحليب في البحر حتى لا تنخفض أسعارها، كلاهما إسراف وتبذير يستنزف موارد البيئة ويهدد بدمارها العاجل.

الفرع الثالث

الصيد الجائر

إن الإسراف في الصيد الجائر للحيوانات والطيور سبب مهم من أسباب التلوث، نظرا لما يترتب عنه من إخلال بالنظام البيئي الذي يقوم على حلقات متسلسلة، وثيقة الارتباط ببعضها، وغياب حلقة منها يحدث اضطراباً في دورتها، وينعكس ذلك على البيئة في شكل تضخم لبعض الأنواع على حساب أنواع أخرى.

لذلك نهى الإسلام عن اتخاذ الصيد وسيلة للهو والترفيه، مما يؤدي إلى إبادة بعض الفصائل من الحيوان الذي خلقه الله ليقوم بوظيفته في هذه الحياة، وأباح ذلك في حدود ما يكفي حاجة الإنسان دون زيادة. ومصداق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قتل عصفوراً عبثا عج (أي رفع صوته بالشكوى) إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب، إن فلانا قتلني عبثا ولم يقتلني منفعة»[١٤٢]. وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من إنسان قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عز وجل عنها. قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها يرمي بها»[١٤٣].

---

(١٤٢) النسائي، أحمد بن شعيب. سنن النسائي. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات إسلامية. حلب. ؟ سوريا. ط٢. ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م. كتاب الضحايا. رقم ٤٣٧٠. ج٧. ص ٢٣٩. ومسند أحمد. مسند الكوفيين. رقم ١٨٦٥١. ج٤. ص ٣٨٩.

(١٤٣) سنن النسائي. كتاب الصيد والذبائح. رقم ٤٢٧٤. ج٧. ص٢٠٦. ومسند أحمد. مسند المكثرين من الصحابة. رقم ٦٢٦٣ و٦٦٦٦.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فخرج لحاجته، فرأينا حُمَّرةً (أي قُبَّرةً) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش (أي ترفرف بجناحيها) فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها)، ورأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: (من حرق هذه)؟ قلنا: نحن، قال: (إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»[(١٤٤)].

ففي هذه التوجيهات النبوية تربية عالية للنفوس، حتى ترفق بالبيئة، وتتجاوز السلوكيات العابثة، وتتحاشى الإضرار بالمخلوقات لمجرد اللهو وإزجاء الوقت، ومنها ندرك عظمة هذا الدين الذي جعله الله خاتماً ومهيمناً، لأننا عرفنا - بعد أن عصفت بنا أزمة البيئة - أن جميع الكائنات الحية تسهم بقسط في حمايتها.

الفرع الرابع
عدم الإسراف في زراعة ما ليس فيه فائدة

وهذا المبدأ اعتمده الفقهاء المسلمون، بناء على ما أقره الإسلام من الامتناع عن الإسراف في كل مجالات الحياة، وأباحوا زراعة نباتات الزينة في الحالات التي تكون فيها الأمة مكتفية في غذائها، أما إذا كان عدد السكان كبيراً والإنتاج الزراعي غير كاف لتلبية احتياجاتهم الضرورية، فإن الإسلام يفرض على أصحاب الأراضي أن يوجهوا عنايتهم إلى استنبات المحاصيل الغذائية، وعدم تبديد التربة والمياه فيما لا فائدة منه.

وقد تناول ابن خلدون هذه الفكرة في مقدمته، وأشار إلى أن من بين

---

(١٤٤) سنن أبي داود. كتاب الجهاد. رقم ٢٣٠٠. ج٣. ص٥٥. وكتاب الأدب. رقم ٤٥٨٤. ج٤. ص ٣٦٧ بإسناد صحيح. ومسند أحمد. مسند المكثرين من الصحابة. رقم ٣٦٤٣.

أسباب فشو المجاعات في الأمصار انصراف الأغنياء إلى زراعة أشجار الزينة للتباهي بها، وإغفالهم الضروريات التي يكون بها معاش العباد: "يقول بعض الخواص إن المدينة إذا كثر فيها غرس النارنج[١٤٥] تأذنت بالخراب، حتى إن كثيراً من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور، وليس المراد ذلك، ولا أنه خاصية في النارنج، وإنما معناه أن البساتين وإجراء المياه هو من توابع الحضارة. ثم إن النارنج والليم والسرو[١٤٦] وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غاية الحضارة، إذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكالها فقط، ولا تغرس إلا بعد التفنن في مذاهب الترف.. وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه، ولقد قيل مثل ذلك في الدفلى[١٤٧]، وهو من هذا الباب، إذ الدفلى لا يقصد بها إلا تلون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف"[١٤٨]

ويدخل في هذا الإطار استنزاف طاقات الأرض الزراعية في زراعة التبغ الذي يمتص كميات كبيرة من مقدرات الخصوبة في التربة، ثم يتحول إلى مادة استهلاكية مسمومة، تنشر الأمراض، وتفتك بالصحة، ومنها التوسع في زراعة البن في بعض بلدان أمريكا اللاتينية وإرهاق التربة بهذا المحصول لتصديره وجني الأرباح الطائلة من ورائه، بينما عامة الشعب تعيش الفقر المدقع، وتفتقر إلى لقمة العيش، وبين يديها مساحات واسعة من أراضيها محرومة من إنتاج الغذاء الضروري، الذي لا يروي مردوده نهم أصحاب رؤوس الأموال المتعطشين إلى الربح السريع.

---

(١٤٥) النارنج: شجرة مثمرة من الفصيلة السذابية دائمة الخضرة، لها رائحة عطرية وأزهارها بيض عبقة الرائحة تظهر في الربيع وتستعمل في صنع ماء الزهر وبعض العطور (راجع: المعجم الوسيط، ص ٩١٣.

(١٤٦) الليم: هو نفسه الليمون، وهو شجر مثمر من فصيلة البرتقاليات. السرو: جنس شجر حرجي للتزيين، من فصيلة الصنوبريات (راجع: المعجم الوسيط. ص ٤٢٨).

(١٤٧) الدفلى: نبت مر مزهر كالورد الأحمر وحمله كالخروب، من الفصيلة الدفلية، ويتخذ للزينة (راجع: المعجم الوسيط. ص ٢٩٠).

(١٤٨) ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة. ص ٥٢٠.

لقد أراد الإسلام أن يكون الاقتصاد في الاستهلاك صفة أساسية من صفات المسلم، وخلقاً مركوزاً فيه، يرافقه في جميع مجالات حياته، ويكيف سلوكه، ويرشده إلى أقوم السبل للتعامل مع مختلف موارد البيئة؛ لصيانتها من العبث، والمحافظة عليها من السرف، وحمايتها من التبديد، وهي الأمور الضرورية التي تفتقر إليها البيئة، ويفتقدها الإنسان الغربي، وتتطلب من المسلم التحرك الواعي في هذا المجال، لإيجاد القنوات المؤثرة التي بإمكانها توصيل هذا الفكر الخصب والطرح الواعي إلى العالم.

المبحث الخامس
التراث الفقهي وحماية البيئة

وقد صبغت هذه الرؤية البيئية المتميزة الفكر الإسلامي، وسرت روحها فيه، فكانت الإنجازات الحضارية الإسلامية صورة صادقة لها، وتعبيراً حياً عن تمثل المسلم للقيم البيئية التي حرص القرآن والسنة على غرسها في نفسه. وأكثر ما يبدو هذا التأثير في القواعد الأصولية التي وضعها الفقهاء مستلهمين فيها روح القرآن والحديث، ومقاصد الشريعة، والتي أخذت طريقها إلى التطبيق العملي على يد الجهاز القضائي، ومؤسسة الحسبة، والعلماء الذين نذروا أنفسهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

فمن القواعد التي تعد أصولا عامة مستقرة في التشريع الإسلامي: أن تنمية موارد البيئة واجب شرعاً، للوفاء باحتياجات الناس، وقد استنبط الفقهاء ذلك من الأمر النبوي الجازم بالاهتمام بزراعة الأرض وإحياء الميت منها:

عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أحيا أرضا ميتة فهي له»[١٤٩]. ومن أمات – في المقابل – أرضا حية، كان من حق القائم بالأمر أن ينتزعها منه؛ لأنه اعتدى على حق الأمة في أن تستفيد من ثرواتها، روى أبو عبيدة عن بلال بن الحارث المزني: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقطعه العقيق (وهي أرض بالمدينة) فلما كان زمان عمر قال لبلال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقطعك لتحجزه عن الناس، وإنما أقطعك لتعمل. فخذ منها ما قدرت على عمارته ورد الباقي»[١٥٠]. لذلك قال الإمام

---

(١٤٩) سنن الترمذي، كتاب الأحكام. رقم ١٣٠٠. ج٣. ص ٦٦٢. ومسند أحمد. باقي مسند المكثرين. رقم ١٤١٠٩ و١٤٣١٠ و١٤٣٨٣ و١٤٥٥٠. وسنن الدارمي. كتاب البيوع. رقم ٢٤٩٣. حديث حسن صحيح.

(١٥٠) أبو عبيد القاسم بن سلام ؟ الأموال، المكتبة التجارية. بيروت. ص ٢٩٠.

القرطبي: إن «الزارعة من فروض الكفاية، فيجب على الإمام أن يجبر الناس عليها، وما كان في معناها من غرس الأشجار»(١٥١).

كما استنبطوا منه – أيضا – التنبيه إلى رعاية الأشجار المثمرة والعناية بها: «أكرموا بني عماتكم النخل»(١٥٢)ومن أمره بالمحافظة على اخضرار الأرض ومنع بوارها وتصحرها بتعهدها بالزرع والتشجير الدائم: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل»(١٥٣): «وليس هناك حث وتحريض على الغرس والتشجير أقوى من هذا الحديث، لأنه يدل على الطبيعة المنتجة والخيرة للإنسان المسلم. فهو بفطرته عامل معطاء للحياة كالنبع الفياض، لا ينضب ولا ينقطع، حتى إنه ليظل يعطي ويعمل حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها. فلو أن الساعة توشك أن تقوم لظل يغرس ويزرع، وهو لن يأكل من ثمر غرسه، ولا أحد غيره سيأكل منه، لأن الساعة تدق طبولها، أو ينفخ في صورها. فالعمل – هنا – يؤدى لذات العمل؛ لأنه ضرب من العبادة، والقيام بحق الخلافة لله في الأرض إلى آخر رمق»(١٥٤).

ويترتب على هذا الواجب إيجاد الوسائل الموصلة إليه، لأنها شروط مكملة للتنمية، ثم حفظها وصيانتها، ووقايتها من أسباب الفساد المتوقع حدوثه، بسد ذرائع وقوعه، ومعالجته بعد الوقوع. فمعالجة الفساد تقوم على قاعدة (الضرر يزال)، والوقاية منه تقوم على قاعدة(يدفع الضرر بقدر الإمكان) والوقاية من الفساد في الإسلام أولى من معالجته، لذلك قال الأصوليون: (الدفع أسهل من الرفع)، وقد وضعت هذه القواعد غطاء لها، واعتبر الفقهاء حماية موارد البيئة

---

(١٥١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣، ص ٣٠٦.
(١٥٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده. ج١، ص٣٥٣. وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء، ج٦. ص ١٢٣.
(١٥٣) أحمد بن حنبل الشيباني. مسند أحمد. مؤسسة قرطبة. القاهرة. د. ط. د. ت. باقي مسند المكثرين من الصحابة. رقم ١٢٥١٢. ج٣. ص ١٩١. انفرد به أحمد بن حنبل.
(١٥٤) القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام. ص ٦٢ – ٦٣.

مطلبا شرعيا قطعيا، لأنه شرط ذاتي لقيام الحياة الإنسانية الكاملة السليمة(١٥٥)، وتطويرها إلى الأفضل، وهو أعلى مقاصد الشريعة وأشرفها.

وقد اعتبر التراث الفقهي الإسلامي موارد البيئة نعما تفضل بها الله على عباده، فأحاطها بسياج من الأحكام الشرعية، والقيم الأخلاقية التي تمنع إهدارها أو تلويثها، وعد استخدام النعم في غير وجوهها المشروعة حراماً، لأن الانحراف في التعامل معها لا يحقق الغاية المرسومة شرعاً من أصل خلقها، باعتبار أن استخدام النعم ليس مطلقاً حسب مشيئة المرء ورغبته وهواه، بل هو غائي، خاضع للمقاصد التي حددها الشارع لها، لذلك جعل الله إغداق النعم وازديادها رهناً بحسن التعامل معها: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١٥٦) ولا يتوقف ازدياد النعم – هنا – على وفرتها وكثرتها وتقلب الناس في وسائل الترف والرفاهية فحسب، بل هي مقرونة بالبركات، أي برضى الله، والأمن والطمأنينة وراحة النفس، وهدوء البال يقول عز وجل في موضع آخر: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(١٥٧)، والشكر يقتضي مراقبة الله أثناء التصرف في النعمة، دون بطر ولا استعلاء على الخلق، ولا استخدام لها في الأذى والشر والدنس والفساد: «إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى، بركات في الأشياء، وبركات في النفوس، وبركات في المشاعر، وبركات في طيبات الحياة، بركات تنمي الحياة وترفعها في آن، وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال»(١٥٨)

وإذا كان استخدام النعم في غير وجوهها المشروعة يعد حراماً، فإن ما هو أشد حرمة منه هو تدمير مصادر هذه النعم وأصولها، أو تلويث مواردها،

---

(١٥٥) الكيلاني، د. إبراهيم زيد. "حماية البيئة في الإسلام"مجلة دراسات، الجامعة الأردنية مج١٩. ع٤. تشرين الأول١٩٩٢ ص١٩٦.
(١٥٦) الأعراف، ٩٦، .
(١٥٧) إبراهيم، ٧.
(١٥٨) قطب، سيد. في ظلال القرآن، مج ٣، ص ١٣٣٩.

أو إفسادها أو تعطيلها، أو الإخلال بتوازنها، لأنه عدوان على البيئة، يترتب عليه حرمان الناس مما قدر لهم الانتفاع به: «إن انهدام أصل المباح أو موارد النعم التي نشأت عنها انهداماً كلياً أو جزئياً بتدميرها أو تخريبها كان ذلك محرماً تحريماً قاطعاً لمكان القضاء على الأصل والفروع معاً، إذ القضاء على الأصل يستلزم إفناء الفروع بفناء أصلها، فكان تحريماً مزدوجاً؛ لتعلقه بالأمرين معاً، ولازدواج علة التحريم»(١٥٩). إذ من المقاصد الأساسية في الشريعة وجوب المحافظة على مصادر النعم؛ لتعلق حفظ النفس بها، فضلاً عن النعم نفسها.

ويؤكد الإمام الشاطبي: أن النعم التي من الله بها على عباده ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(١٦٠) تستغرق جميع ما تضمه الأرض من موارد بيئية تنفع الإنسان، من الأرض والجبال والأمطار والأنهار، والليل والنهار، والأشجار والأنعام، وما هو مستودع في جوف الأرض من معادن وثروات، مما عرفه الإنسان، ومما لم يتوصل بعد إلى معرفته، فكلها نعم بإطلاق، ليس فيها شائبة من الشر، غير أن سوء تصرف الإنسان فيها واستخدامها لغير الغرض الذي خلقت من أجله هو الذي يجعلها نقماً وفي ذلك يقول: «إن هذه النعم تؤول بأصحابها إلى النقم، إنما ذلك من جهة وضع المكلف، لأنها لم تصر نقماً في نفسها، بل استعمالها على غير المقصود فيها هو الذي صيرها كذلك، فإن كون الأرض مهاداً. والجبال أوتاداً، وجميع ما أشبهه نعم ظاهرة لم تتغير، فلما صارت تقابل بالكفران بأخذها على غير مأخذ صارت عليهم وبالا، وفعلهم فيها هو الوبال – في الحقيقة – لا هي»(١٦١).

وبذلك استطاع الفقه الإسلامي أن يتمثل المبادئ والتعاليم التي وضعها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأن يستخلص منهما المقاصد العامة التي تكفل للبيئة سلامتها، وتلزم الأمة بصيانتها، وتحرم العبث بمواردها التي

---

(١٥٩) الكيلاني، د. إبراهيم زيد. "حماية البيئة في الإسلام" ص٢٠٥.
(١٦٠) لقمان، ٢٠.
(١٦١) الشاطبي، الموافقات، ج٣. ص٢٢٤.

جعل الله ديمومتها وازديادها رهناً بشكر الله عليها، أي حسن التصرف فيها، وقلتها وانقلابها نقماً ضارة وشروراً مهلكة مرتبط بانحراف الإنسان في التعامل معها، وكفرانها باستغلالها في غير الغاية التي خلقت لها.

وحتى تكتمل معالم الصورة، ويتبين لنا الفرق الواضح بين التصور الإسلامي الذي حاولنا توضيح معالمه وتبسيط أحكامه فيما سبق، وبين التصور الغربي الذي يسكن في وعي الإنسان الغربي ويستوحي منه أبجديات سلوكه تجاه العالم الذي يحيا فيه، رأينا أن نعرض لهذا التصور لنتبين مدى التأثير العميق الذي تمارسه العقائد والمكونات الثقافية فيما يصدر عن الإنسان من أفعال وتصرفات.

المبحث السادس
البيئة في التصور الغربي

إن التصور الغربي الذي تكون من امتزاج عناصر الثقافة اليونانية القائمة على التفكير العقلي التأملي الفلسفي، وعناصر الثقافة الرومانية القائمة على الوثنية والمادية والاستعمار، وتأثر تأثراً عميقاً بالفلسفة الحديثة التي نبذت الدين والقيم الأخلاقية وبنت هيكلها على أساس مادي محض، قد اكتست البيئة - في إطاره - مفهوماً خاصاً يتناسب مع القيم المادية التي يقوم عليها، ويحتكم إليها في جميع تصرفاته.

فالعلاقة الروحية التي تربط الإنسان بالبيئة باعتباره أحد عناصرها الأساسية، والتي تخوله حق الإشراف على تنميتها وحمايتها لتحقيق غايته في الوجود لا أثر لها في التصور الغربي الذي استلهم من الفلسفة اليونانية أن الذات الإنسانية المتميزة بالعقل والروح منفصلة انفصالاً تاماً عن الوجود الطبيعي الذي يتسم عندها بالوضاعة والحقارة، وهي الفكرة التي تبناها ديكارت أبو الفلسفة الحديثة، وأصلها حينما قسم الوجود إلى ذات إنسانية عدها هي الحقيقة الأولى، والمرجع الأصلي والأوثق لكل ما في الوجود؛ لتميزها بالفكر، وإلى عالم مادي آلي، ضئيل وتافه في أصل وجوده[١٦٢]، ولا علاقة بين الطرفين إلا من حيث الاستنفاع المادي المطلق، الذي لا يخضع لشروط، ولا تحده حدود، مما أدى إلى نشوء شعور بالاستعلاء على البيئة، استعلاء يستصغر شأنها ويلغي قيمتها، وهو ما عبر عنه آل قور بقوله: «إن النهج الديكارتي إزاء قصة الإنسان يسمح لنا بالاعتقاد بأننا منفصلون عن كوكب الأرض، مخولون بأن ننظر إليها على أنها مجرد تجمع من الموارد الطبيعية غير

---

(١٦٢) النجار، د. عبد المجيد "قضايا البيئة من منظور إسلامي"، ص١٧٢.

الحية التي يمكننا استغلالها بالطريقة التي تروقنا، وقد أفضى بنا هذا المفهوم المغلوط الأساسي إلى أزمتنا الراهنة»(١٦٣).

وهذا الانفصال بين الطرفين، وشعور الإنسان الغربي بتفاهة العالم الطبيعي وماديته البحتة تولد عنه إحساس بالغربة إزاء عناصر البيئة، تحول إلى عداء دفين نشأ من اعتقاده أن الطبيعة متجبرة، معادية للإنسان ومتربصة به في جميع الحالات، وهي بخيلة بعطائها، لا تمنحه خيراتها إلا إذا كد واجتهد، وافتك منها الرزق افتكاكاً، وقد عبر عن توجسه وخوفه من غضب الطبيعة قديماً باتخاذ بعض عناصرها آلهة يسترضيها، ويقدم لها القرابين، ثم تبلور هذا التصور - في ظل الفلسفة الحديثة - ليصبح احتقاراً ونقمة، ولدا فيه الرغبة الجامحة في مصارعة الطبيعة والهجوم عليها لاستخلاص المنافع المادية منها استخلاصاً عنيفاً، وهو ما عبر عنه أحد الحكماء الإسبرطيين بقوله: «إن الحياة عدو لا يستطيع التغلب عليه إلا من كان قويا في جسمه شديدا في بأسه»(١٦٤)

وبغياب الهادي الروحي في الثقافة الغربية التي تنكر وجود الإله ولا تعترف بالغيبيات والمثل والقيم الأخلاقية، انتفت الغائية من حياة الإنسان الغربي، وانعكس ذلك على تفكيره وسلوكه، فأصبح محصوراً في حدود يومه، لا هم له إلا إشباع رغباته، وإرواء نزواته، والعب من المتع والملذات والجري وراء الرفاهية والكماليات في سباق محموم مع الزمن الذي يصور له الموت يقترب منه يوماً بعد يوم، وهو لم يأخذ من الدنيا وزينتها ما يروي نهمه.

وكان طبيعياً أن تتأثر الموارد البيئية بهذا النمط من التفكير، وبخاصة بعد ما حاز العلم على وسائل وآلات سهلت له - إلى أبعد حدود - سبل استثمار البيئة، فوجد فيها الإنسان الغربي مجالاً واسعاً للتعبير عن تعطشه للمتع

---

(١٦٣) آل قور، الأرض في الميزان. ترجمة: عواطف عبد العزيز, مطبعة الأهرام القاهرة١٩٩٤ ص ٢٢١.

(١٦٤) عبد الحليم، عبد الحفيظ محمد. "من توجيهات الإسلام في المحافظة على الصحة". مجلة الوعي الإسلامي، الكويت. ع ٢٦٨. ديسمبر ١٩٨٦، ص ٣٧.

والملذات، فاتخذ من موارد البيئة منبعاً لا ينضب لاستجلاب المنافع، والتفنن في اختراع وسائل الترفيه، وأصبح العلم في يده سلاحاً يشهره في وجه البيئة ليخضعها لإرادته، ويستنزف خيراتها، ويسيطر على قدراتها لإحساسه بالتضاد بينه وبينها، لذلك قال ها يزنبرج:" ينظر إلى تقدم العلوم، وكأنه حملة صليبية لغزو عالم المادة(١٦٥)، مع كل ما تحمله لفظة "حملة صليبية" من معاني التعصب والحقد، والعنف الأعمى، والفتك الذريع.

ومع غياب القيم الأخلاقية التي تردعه عن الإضرار بالبيئة ومكوناتها، والتي تحولت إلى منافع ومصالح، لم يتورع عن الاستعانة بالعلم في تدمير البيئة وقهرها إذا رأى أن ذلك يحقق له نفعا آنيا، دون أن يصحب ذلك أي شعور بالندم، أو إحساس بالأضرار البليغة المترتبة عن هذا الاستغلال الأهوج:" إذا ما دمرت المناشير الآلية كل الغابات المطيرة على ظهر الأرض، وكان الناس الذين يديرونها لا يسمعون صوت ارتطام الأشجار بأرض الغابة العارية، فهل هذا يهم في شيء؟ هذا العقل الرشيد والمنعزل العلمي الذي يراقب عالماً لم يعد جزءاً منه هو في الغالب عقل يتصف بالعجرفة وعدم الإحساس واللامبالاة"(١٦٦).

أضف إلى ذلك أن الفلسفة الغربية الحديثة قد جعلت الإنسان هو المقياس في الوجود، والحقيقة الوحيدة فيه، فهو إله نفسه، والحرية الفردية لا حد لها، ولو أدت إلى حرية الرذيلة والإباحية، والحرية الاقتصادية كذلك، ولو أدت إلى الظلم. وقد أدى تقديس الفرد إلى تضخم الفردية فيه، ونزوعه إلى إثبات وجوده بالقوة، وإخضاع كل مقومات الحياة له؛ لتخدم رغباته، وتلبي متطلباته، فغلبت عليه الأنانية المفرطة في التعامل مع عناصر البيئة.

إن هذه المفاهيم والتصورات التي شكلت الذهنية الغربية، وحددت علاقتها

---

(١٦٥) جورج، ستانسيو. العلم في منظوره الجديد. ترجمة: كمال خلايلي. عالم المعرفة. الكويت ١٩٨٩. ص١٣٤.

(١٦٦) آل قور. الأرض في الميزان. ص ٢٥٨.

بالبيئة هي التي استقرت في أعماق الإنسان الغربي وصاغت عقليته، وكيفت بالتالي سلوكه الذي تجسد في طريقة تعامله مع عناصر البيئة منذ أن قامت الثورة الصناعية وحتى يومنا هذا، وهذا ما يفسر مبلغ الأضرار الجسيمة التي لحقت بالبيئة، لأن الربح المادي والمنفعة السريعة هي التي توجه مشاريعه وتتحكم في نشاطاته المختلفة.

ومازال هذا المنطق المادي يتحكم بقوة في سلوك الإنسان الغربي وردود أفعاله، حتى بعد أن أدرك مقدار الدمار الهائل الذي ألحقه بالبيئة، فهو لا يزال مصراً على عدم تحمل أية مسؤولية للحد من تدهورها، إذا كان فيها مساساً بقيمة الأرباح التي يجنيها من مشاريعه الصناعية. حيث لقيت القوانين التي أصدرتها بعض الدول لإجبار أصحاب المصانع على تركيب مرشحات لتنقية الأبخرة المتصاعدة من مصانعهم معارضة شديدة، لأن نفقات هذه المرشحات ستقتطع من الأرباح(١٦٧) واحتج كل واحد منهم أن مقدار ما يخلفه من ملوثات لا يعد شيئاً بالنسبة للبيئة، غافلاً أو متغافلاً عن أنه ليس الوحيد الذي يثقل يومياً كاهل البيئة بمقدار من الملوثات، مما يجعل علاج هذه المشكلة أمراً مستعصياً للغاية في ظل إصرار أصحاب رؤوس الأموال القائمين على إدارة عجلة الاقتصاد على عدم تحمل نفقات إزالة التلوث: «ليس من المتوقع – في إطار الفلسفات التي تقوم على الفراغ العقيدي، والتصور الخاطيء لطبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة الطبيعية، وفي هدى المذاهب والأيديولوجيات التي تقوم على النفعية والتمركز حول الذات – أن يقوم الممارس للنشاط الملوث للبيئة – اختياراً وطواعية – بإزالة أسباب التلوث»(١٦٨).

بل إنه ليس في نيتهم التوقف عن إطلاق الملوثات، وليس لديهم أدنى وعي بما يحدث للبيئة من دمار، وما يهدد البشرية من أخطار، مادامت الأرباح تملأ

---

(١٦٧) د. غانم، حسين. "الإسلام وحماية البيئة" مجلة الاقتصاد الإسلامي. الإمارات العربية المتحدة. ع ١٣٥، أغسطس ١٩٩٢. ص٨.

(١٦٨) المرجع نفسه، ص ٨.

خزائنهم. ومن الأمثلة الواقعية على ذلك: أن حماة البيئة في الولايات المتحدة الأمريكية قد توصلوا إلى استصدار قانون يحد من مقدار الغازات الملوثة للهواء، ويمنح لكل شركة مجالا محددا لإطلاق هذه الغازات، تتعرض - إذا تجاوزته - للغرامات المالية والإجراءات القضائية لوقف نشاطها، وتسمى هذه المقادير بأسهم التلوث، وبدل أن تخفف من ظاهرة تلويث الهواء، أصبحت هذه الأسهم موضوعاً للمزايدة، حيث تضطر الشركة التي تعاني من الكساد إلى بيع نصيبها من الملوثات بأسعار عالية إلى شركات ذات نشاط واسع، وبحاجة ماسة إلى إطلاق أطنان من أكاسيد الكبريت، وأكاسيد النيتروجين زائدة عن حقها القانوني[١٦٩].

إن هذه الصورة القاتمة التي يرسمها لنا الواقع لتدهور البيئة، وتمادي الحضارة الغربية في إلحاق الأذى بمواردها، يجعلنا على يقين أن الأزمة البيئية الراهنة هي ثمرة مرة للتصور الثقافي الغربي عنها، وهو يتناقض تناقضاً كلياً مع أبجديات التصور الإسلامي الذي عرضنا معالمه الكبرى آنفاً، والذي أولى البيئة أهمية بالغة، وشدد في المحافظة عليها وحمايتها من باب حماية البشرية وضمان استمرارية حياتها فوق الأرض، إلا أنها تتعرض اليوم لخطر ماحق، ويتهددها دمار شامل بسبب مشكلة التلوث البيئي.

---

(١٦٩) المهنا، حسن بن حسين. "الاقتصاد الأخضر". مجلة الفيصل. ع٢٣٤. أبريل ١٩٩٦. ص٦١.

خاتمة

وفي ختام هذا العرض السريع للتصور الإسلامي للبيئة وموقفه من ظاهرة التلوث البيئي نخلص إلى تقرير جملة من النتائج التي تم التوصل إليها، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ – أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قد أوليا اهتماماً كبيراً للبيئة في جميع حالاتها حية وجامدة، وأرشدا الإنسان إلى المحافظة عليها باعتبارها نعماً إلهية، وحذرا من سوء استغلالها، ودعيا إلى الانتفاع بها والتمتع بطيباتها في حدود الحاجة، وعدا ذلك كله ضرباً من ضروب الطاعات التي يتقرب بها العبد من ربه.

٢ – أن استقراء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتناول موضوع البيئة يمكننا من تحديد المعالم الكبرى للتصور الإسلامي للبيئة والتي تنطبع في وعي المسلم أثناء تفاعله تفاعلاً إيجابياً مع تعاليم دينه، ومن تلك المعالم: أن الله وحده هو خالق البيئة ومنظمها، ومنها: أن هذه البيئة متوازنة ومقدرة ومنسجمة في كيفها وكمها مع بعضها بعضاً، أنها في أصل وجودها خير كلها؛ لأنها في ابتداء خلقتها نعمة إلهية، تفضل بها الله سبحانه على خلقه، ومنها: أن الإنسان أهم عناصر البيئة وأبلغها تأثيرا فيها، ومنها: أن هذه البيئة قد سخرها الله للإنسان وجعلها منحة مبذولة له يتصرف فيها، وينتفع بمواردها في إطار القيام بمهمة الخلافة في الأرض، ومنها مقدرة بحيث تظل تتفجر بالخيرات، وتجود بالأقوات، وتكفي كل من عليها من البشر إلى أن يأذن الله بفناء العالم.

٣ – أن القرآن الكريم قد حذر من الإساءة إلى البيئة والعبث فيها بأي شكل من الأشكال، وعبر عن الاختلال الذي يمكن أن يصيبها أو يدمر بعض عناصرها أو يعطلها عن أداء وظائفها الطبيعية بالفساد. ويتضمن النهي عن الإفساد في الأرض معاني وإيحاءات تتجاوز حدود الزمان والمكان؛ لتستوعب كل معاني الفساد التي أشار إليها القدماء، وتصبح وصفاً دقيقاً لظاهرة التلوث البيئي الذي يجتاح الأرض اليوم.

٤ – أن الشريعة الإسلامية قد تضمنت جملة من القواعد التي تحفظ للإنسان صحته، وللبيئة توازنها وتحميها من غوائل التلوث.

منها: أحكام الطهارة، والاقتصاد في استهلاك الموارد البيئية، وبخاصة الأساسية منها: كالمياه والغذاء، والثروة الحيوانية، والتربة.

٥ – أن الفقه الإسلامي قد استطاع أن يتمثل المباديء والتعاليم التي وضعها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأن يستخلص منهما المقاصد العامة التي تكفل للبيئة سلامتها، وتلزم الأمة بصيانتها، وتحرم العبث بمواردها التي جعل الله ديمومتها وازديادها رهناً بحسن التصرف فيها، وقلتها وانقلابها نقماً مرتبط بسوء استغلالها والانحراف في التعامل معها.

٦ – أن التصور الغربي للبيئة يستمد جذوره من اعتقاد الإنسان الغربي بانفصال ذاته الإنسانية العاقلة المفكرة انفصالا تاماً عن العالم المادي الذي يراه ضئيلاً وتافها في أصل وجوده، ومن تقديسه للفرد وجعله هو مقياس الوجود والحقيقة الوحيدة فيه، وأن هذه المفاهيم والتصورات التي شكلت الذهنية الغربية هي التي حددت علاقته بالبيئة، وكيفت بالتالي سلوكه الذي تجسد في طريقة تعامله مع عناصر البيئة منذ أن قامت الثورة الصناعية وحتى يومنا هذا، الأمر الذي يفسر مبلغ الأضرار الجسيمة التي لحقت بالبيئة؛ لأن الربح المادي والمنفعة السريعة هي التي توجه مشاريعه وتتحكم في نشاطاته.

وقد أثبتت أزمة التلوث البيئي التي تجتاح الأرض اليوم، والتي كانت المؤشر الخطير الذي أثار قضية البيئة ولفت الأنظار إليها – بما لا يدع مجالا للشك – أن جذورها تضرب في أعماق التركيبة الفكرية للإنسان الغربي، وتأخذ شكل الأزمة الثقافية الحادة التي فشلت في تشخيص الكينونة البشرية، وأخفقت في احتواء تفاعلاتها، وأكدت أن تجريد الإنسان من الدين والقيم الأخلاقية وقطع علائقه بالسماء يحوله إلى آلة دمار مريعة، تحطم كل ما حولها، ثم تحطم في الأخير نفسها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(١٧٠).

(١٧٠) الأحزاب، ٧٢.

وبمقارنة بسيطة لأبجديات التصور الغربي للبيئة ولأزمة التلوث بمعالم التصور الثقافي الإسلامي، تبين لنا أن الإسلام قد ضم بين دفتيه منظومة عقائدية وتشريعية متكاملة، وأنه يحمل في نصوص الوحي - قرآناً وحديثاً - بذور فقه بيئي متميز بإمكانه تقديم رؤية متوازنة عن مختلف قضايا البيئة، ومعالجة جذرية لمظاهر التلوث، تبدأ من أصلها الذي انطلقت منه وهو إعداد الإنسان الواعي الملتزم بأحكام الشريعة، المدرك لأبعاد العلاقة التي تربطه بالبيئة ومواردها، المراعي - في نشاطه الحياتي - لحقوقه وحقوق الكائنات التي تشاركه الوجود فوق الأرض.

ذلك أن التعويل على التكنولوجيا الحديثة لإيجاد مخرج تقني لظاهرة التلوث والحد منها، ليس هو الحل الأمثل للأزمة، لأن الإنسان الجشع الذي يبحث عن الربح العاجل، ولا يراعي في تعامله مع البيئة مسألة الحفاظ عليها وصيانتها، ولا يروق له أن يستغني عن كمالياته أو سلوكه الاستهلاكي في سبيل نظافة المحيط أو بقاء الغابات، ما يزال موجوداً، ومازالت الذهنية التي تصور له موارد البيئة على أنها مجرد ركام من الماديات الجامدة هي التي تتحكم فيه، وتملي عليه أفعاله.

من أجل ذلك، كان لزاماً أن تتوازى الجهود العلمية لمحاربة التلوث في خط واحد مع صياغة الإنسان وإعادة تشكيله وفق الرؤية الإسلامية الشاملة التي تضبط بدقة نوع الارتباط الذي يجب أن يكون بين الإنسان وبيئته، وتبين بوضوح مدى مسؤوليته: أولا في الحفاظ عليها وصيانتها، وثانيا في كيفية الاستفادة من خيراتها ضمن الحدود التي لا تضيق عليه فتحرمه من الاستمتاع بما هيأه الله له، وفي الوقت نفسه لا تطلق يده لتعيث فيه فساداً.

ومن بين المقترحات التي نرى أن المسلمين مطالبون اليوم بالاضطلاع بها للإسهام إسهاما فعالا في محاربة التلوث والمحافظة على البيئة من منطلق منظومتهم القيمية المعصومة ما يلي:

١ - إعداد إطارات علمية كفؤة في علم البيئة، بحيث تكون مكونة تكويناً علمياً تاماً يمكنها من فهم مقومات النظام البيئي، وطبيعة القضايا والمشكلات البيئية التي نتجت عن ظاهرة التلوث، مع استصحاب الرؤية الإسلامية التي تحدد بوضوح المنهج السليم الذي يتعين على المسلم الالتزام به أثناء حركته العمرانية، وتدعو إلى الرفق بالبيئة والاستنفاع بها في حدود الحاجة.

٢ - وضع استراتيجية للتربية البيئية الإسلامية تأخذ مكانها في البرامج التعليمية منذ المرحلة الابتدائية مروراً بالمراحل الأخرى، وتشرف على إعداد موادها وتحديد أهدافها ووضع صيغها موضع التنفيذ الكوادر المتخصصة في هذا المجال، حتى ينشأ الطفل المسلم وهو مشبع بالتوجه البيئي الإسلامي.

٣ - تنظيم حملة توعية اجتماعية واسعة مدروسة تسهم فيها جميع الفعاليات الاجتماعية لنشر الثقافة البيئية وتحسيس الأفراد بضرورة الاهتمام بهذا الجانب الحيوي وإفراده بالأهمية التي يستحقها، والتزام السلوك الإسلامي القويم في التعامل مع المحيط والبيئة، وتشترك فيها المساجد والنوادي الثقافية والإذاعة والتلفزيون ودور النشر وغيرها، وتتبنى جميعاً مشروع الدعوة إلى بيئة أنظف لتكون البلدان الإسلامية قدوة في هذا المجال.

٤ - إحياء مؤسسة الحسبة وإعادة تفعيل دورها في حياتنا المعاصرة وفق التقنيات المتطورة، واختيار الكوادر الواعية المتخصصة للإشراف على تسييرها على مستوى كل دولة في العالم الإسلامي.

٥ - محاولة التأسيس لعلم البيئة الإسلامي، إذ يتحتم على الصفوة المختارة من العلماء والمفكرين والباحثين أن يعملوا على وضع الأسس التي تمهد لنشأة فقه بيئي إسلامي يعالج جميع المشكلات البيئية التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية، وينظر للإجراءات الوقائية التي تحد من أخطار التلوث بالاستناد إلى ما ورد في الكتاب والسنة وأمهات كتب الفقه من توجيهات وإرشادات وفتاوى في هذا المجال، يضاف إليها ما يتوصل إليه العلماء المجتهدون من أحكام تتناسب مع ظروف العصر وتتماشى مع التطورات التي تشهدها الحياة كل يوم.

وبذلك يتيح المسلمون للفقه والفكر الإسلاميين أن يبرهنا عن أهليتهما لقيادة البشرية نحو الحق والخير، وتخليصها من الأزمات التي أوقعتها فيها الفلسفة الغربية الحديثة، بعدما كشفت التجربة عن مكامن القصور فيها، وأبانت عن مواضع الخلل التي تعاني منها، وأقامت الحجة على عجز الإنسان عن ممارسة حياته فوق الأرض، دون قبس من وحي السماء يهديه وير شده، ويحد من غلواء غرائزه، ويكبح جماح عقله.

فهرس المراجع

١ - القرآن الكريم

أ - الكتب

(ا)

١ - الأصفهاني، الراغب

٢ - الاعتقادات، تحقيق: شمران العجلي. مؤسسة الأشراف. بيروت.١٩٨٨

٣ - تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين. تقديم وتحقيق: د. عبد المجيد النجار. دار الغرب الإسلامي. بيروت.ط١. ١٩٨٨

٤ - معجم مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: نديم مرعشلي. دار الكاتب العربي بيروت. آل قور

٥ - الأرض في الميزان. ترجمة: عواطف عبد العزيز. دار الأهرام. القاهرة. ١٩٩٤

(ب)

- البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل

٦ - صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير. اليمامة. بيروت. ط٣. ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٧ - صحيح البخاري. دار القلم. بيروت. ١٩٨٧م.

(ت)

- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى

٧ - سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون. دار إحياء التراث العربي. بيروت. د.ت.د.ط.

٩ - سنن الترمذي. دار الفكر. بيروت. ١٩٨٣م.

(ج)

- الجاحظ، أبو عمرو عثمان بن بحر

٨ - الحيوان. تحقيق: عبد السلام هارون. دار إحياء التراث. بيروت ط٣. ١٩٦٩ - جورج، ستانسيو
٩ - العلم في منظوره الجديد. ترجمة: كمال خلالي. عالم المعرفة. الكويت.١٩٨٩

(ح)

- الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله
١٠- المستدرك على الصحيحين. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٤١١هـ. ١٩٩٠ م
- ابن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني
١٠- مسند أحمد. مؤسسة قرطبة. القاهرة. دت دط.
- الحفار، د. محمد سعيد
١٠- بيئة من أجل البقاء. دار الثقافة - الدوحة. ١٩٩٠

(خ)

- ابن خلدون، عبد الرحمن
١١- المقدمة. دار القلم. بيروت ط٥. ١٩٨٤
- خليل، د. عماد الدين
١٢- حول إعادة تشكيل العقل المسلم، كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. قطر. ط١. رمضان ١٤٠٣ هـ

(د)

- أبو دية، محمد حمدان
١٣- علم البيئة. دار الشروق، عمان. ١٩٩٦

(ر)

- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد
١٤- مناهج الأدلة في عقائد الملة. تحقيق: محمود قاسم. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ط٣. ١٩٦٩

(ز)

- الزحيلي، د. وهبة

- الفقه الإسلامي وأدلته. دار الفكر. دمشق ط١. ١٤٠٤ هـ. ١٩٨٤ م

- زكي، د. أحمد

١٥- مع الله في السماء. دار القلم - بيروت - ط١. ١٩٨٣

(س)

- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث

١٦- سنن أبي داود. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الفكر. بيروت. د.ت.د.ط.

١٩- سنن أبي داود.المكتبة العصرية. بيروت. د.ت.د.ط.

(ش)

- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي

١٧- الموافقات، تحقيق: د. عبد الله دراز. دار المعرفة. بيروت.

- الشوكاني، محمد بن علي

- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار. دار الجيل. بيروت. د.ت.د.ط.

- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر

- نهاية الرتبة في طلب الحسبة. نشره السيد الباز العريني بإشراف محمد مصطفى زيادة.

(ص)

- الصابوني، محمد علي

١٨- صفوة التفاسير. دار القرآن الكريم. بيروت. ط٤. ١٩٨١

- صباريني، محمد سعيد، ورشيد الحمد

١٩- البيئة ومشكلاتها، مكتبة الفلاح. الكويت. ١٩٨٦

(ط)

- طبارة، عفيف عبد الفتاح

٢٠- روح الدين الإسلامي. دار العلم للملايين. بيروت ط١٩، ١٩٧٩

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير

- جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري). دار الفكر. بيروت. ١٣٩٨ هـ. ١٩٧٨ م

(ع)

- العظيم آبادي، محمد شمس الحق.

- عون المعبود شرح سنن أبي داود. دار الكتب العلمية. بيروت. ط٢. ١٤١٥هـ.

(ف)

- الفقي، محمد عبد القادر

٢١- البيئة: مشاكلها وقضاياها. مكتبة ابن سينا. القاهرة. ١٩٩٣

(ق)

- القرطبي، شمس الدين محمد بن أحمد

٢٢- الجامع لأحكام القرآن - دار الكتاب العربي. بيروت. ط١. ١٩٦٧

- قطب، سيد

٢٣- في ظلال القرآن. دار الشروق. بيروت. ط٧. ١٩٧٨.

(ك)

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل

٢٤- تفسير القرآن العظيم. دار الفكر. بيروت. ١٩٧٠م.

٢٥- مختصر تفسير ابن كثير. اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني دار القرآن الكريم. بيروت. ط٧. ١٩٨١

(م)

- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني

٢٦- سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر. بيروت. د.ت.د.ط.

٣٠- سنن ابن ماجه، دار إحياء التراث العربي. بيروت. ١٩٧٥ م

- مجمع اللغة العربية بالقاهرة

٢٧- المعجم الوسيط، دار الحديث للطبع والنشر. بيروت.

- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري

٢٨- صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي. بيروت.١٩٧٢م.

(ن)

- النجار، د عبد. المجيد

٢٩- قضايا البيئة من منظور إسلامي. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر. مركز البحوث والدارسات. الدوحة. قطرط١. ١٩٩٩

- النسائي، أحمد بن شعيب

١١- سنن النسائي. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات الإسلامية. حلب. سوريا. ط٢. ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م

١١- سنن النسائي , دار البشائر الإسلامية. ١٩٨٦ م

- نوفل، عبد الرزاق

٣٠- بين يدي الله. دار الكتاب العربي. بيروت.

ب - الدوريات

٣١- مجلة الأصالة. ع٢٤. مارس - أبريل ١٩٧٥. الجزائر

٣٢- الاقتصاد الإسلامي. ع ١٣٥. أغسطس ١٩٩٢. الإمارات العربية المتحدة

٣٣- مجلة التربية، ع ٩٤، سبتمبر ١٩٩٠ قطر
ع٩٥، ديسمبر ١٩٩٠
ع٩٨، سبتمبر ١٩٩١

٣٤- مجلة الثقافة ع٣٢، أبريل - مايو ١٩٧٦ - الجزائر

٣٥- مجلة دراسات، مج ١٩، ع ٤. تشرين الأول، ١٩٩٢. الجامعة الأردنية. عمان

٣٦- مجلة رسالة الجهاد، ع ٦٢ س ٦, يناير ١٩٨٨. مالطا

٣٧- مجلة الفيصل، ع ٦٩، يناير ١٩٨٣. المملكة العربية السعودية
ع ١٩٧، مايو ١٩٩٣
ع ٢١٢، أغسطس ١٩٩٤
ع ٢٢٥، أغسطس ١٩٩٥
ع ٢٢٧، أكتوبر ١٩٩٥
ع ٢٣٤، أبريل ١٩٩٦

٣٨- مجلة منار الإسلام: أكتوبر ١٩٨٥، الإمارات العربية المتحدة
سبتمبر ١٩٨٧
مارس ١٩٨٧
نوفمبر ١٩٨٩

٣٩- مجلة منبر الحوار، س٧. ع٢٥. صيف ١٩٩٢. بيروت.

٤٠- مجلة الوعي الإسلامي، ع ١٩٣، نوفمبر ١٩٨٠، الكويت
ع ١٩٧، مارس ١٩٨١
ع ٢١١، مايو ١٩٨٢
ع ٢٦٨، ديسمبر ١٩٨٦
ع ٣٠٨، مارس ١٩٩٠
ع ٣١٠، مايو ١٩٩٠

The Islamic Concept on Environment: Meaning and Dimensions.

Dr. Muhammad Zarman
College of Arts & Humanities, Batinh University, Algeria.

Qur'an and Sunnah showed great concern with all types of environment, animate as well as inanimate, and guided human being to preserve them as graces of God, warned him of abusing them and encouraged him to utilize them and enjoy their benefits according to his need considering that utilization a sort of religious devotion which brings him closer to his Lord.

Through reviewing the verses of Qur'an and the hadiths of Sunnah which deal with environment, one can set the main features of the Islamic concept of environment, that concept which gets imprinted in the Muslim's consciousness through his positive performance of the teachings of Islam. Among those features are the following:

- Allah is the sole Creator and Organizer of the environment,
- The environment is balanced, well-proportioned and in harmony quantitatively and qualitatively.
- Environment per se is pure good because it is a Divine grace created and granted to by God to His creatures,
- Human being is the most important and the most influential element in the environment.
- The environment was subjugated by God for human beings in order use its elements and benefit from its resources in the frame of fulfillment of their mission of Khilafah (Caliphate, vicegerency) on Earth
- Its potentialities were accurately estimated, so as to remain always flowing with good and sufficient provisions to meet the needs of all human beings (and other creatures too) up to the end of this life.
- Qur'an has warned of abusing any element in the environment in any form, and labeled as **"corruption"** any misusing of environmental elements that could impede their natural functions,", and stated that Allah does not love corruptionists.
- The Islamic jurisprudence, in response to the principles and instructions of Qur'an and Sunnah, formulated the general objectives that enjoin upon the Muslim Ummah the preservation of the environment and prohibit any form of abusing its resources.
- When comparing the basics of the Western concept of environment, in terms of the crisis of pollution, with the main lines of the Islamic cultural

concept of that issue, will easily one can easily find out that Islam had produced an integrated ideological and legislative body and that there is in the texts of Qur'an and Sunnah solid bases for a good and unique environmental jurisprudence that could provide us with a balanced view about all environmental issues as well as a radical solution for the problem of pollution starting from its first cause, i.e. preparing the human being through Islam so as to be aware of and committed to the laws of Sharia related to environment and observing in his life activities his own rights as well as the rights of the other beings sharing with him life on this Earth.